مجازر الأرمن

وموقف الرأي العام العربي منها

الدكتور نعيم اليافي

24 AVRIL

٢٤ نيسان

24 AVR

مجازر الأرمن

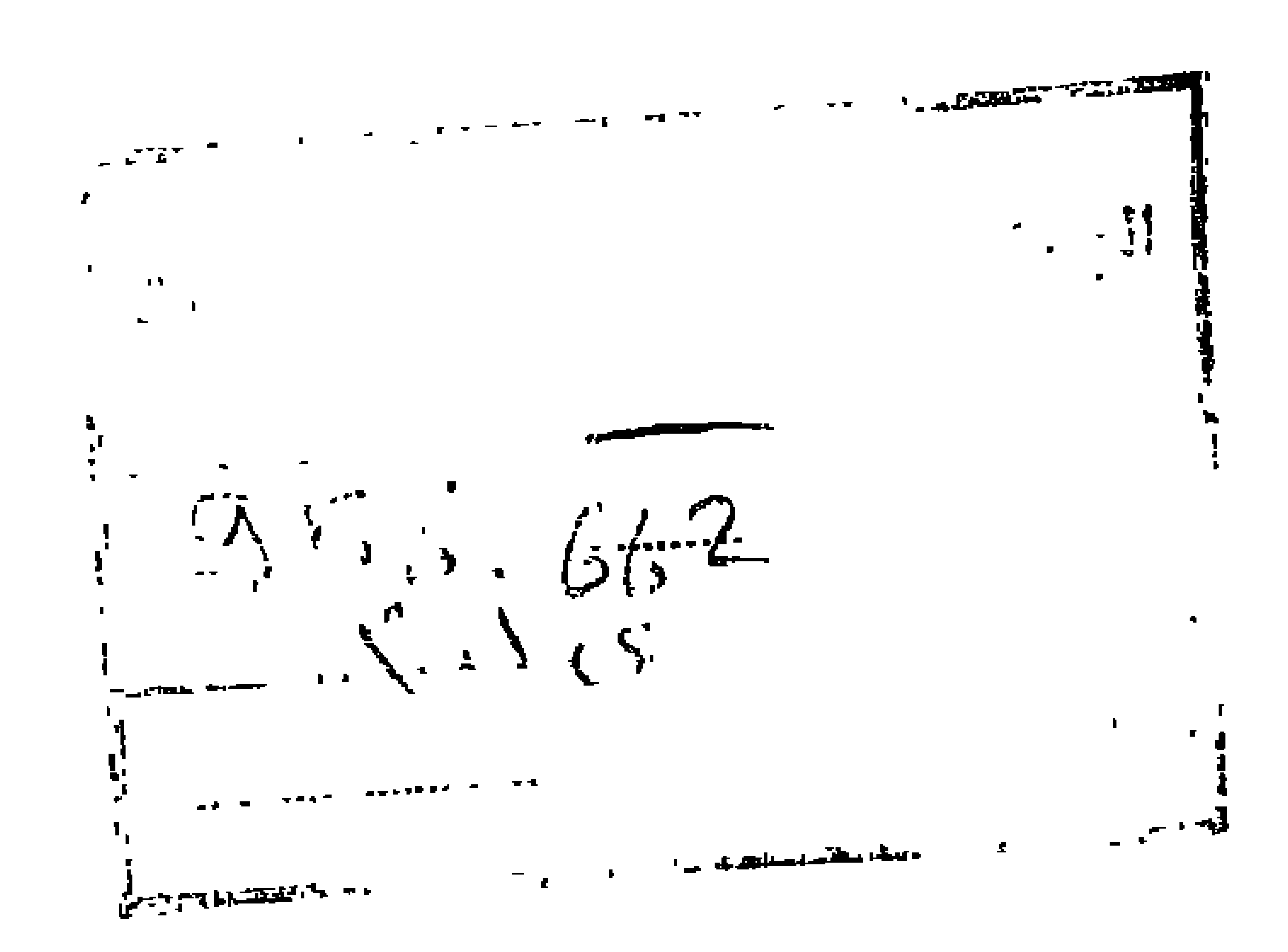
ومَوقف الرأي العام العربي منها

* مجازر الأرمن وموقف الرأي العام العربي منها .
* تأليف : الدكتور نعيم اليافي .
* الطبعة الأولى 1992 / 2000 .

* الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع
سورية ـ اللاذقية ـ ص . ب 1018 ـ هاتف 22339 .
* التنضيد والاخراج : القسم الفني في دار الحوار .

مجازر الأرمن

وموقف الرأي العام العربي منها



الدكتور نعيم اليافي

مقـــدمة

علاقتي بالأرمن ـ شعباً وقضية ـ علاقة قديمة ووثيقة ، فقد ربطتني بهم وما تزال ذكريات من التاريخ لأمتين عريقتين ما برحت تتواشج ، وشدتني اليهم أواصر من الصلات والعلاقات عمقتها وما تزال تجاربهما الواحدة ، فكلتا الأمتين ـ أولاً ـ خضعت لعدو مشترك ، غزاه في عقر داره ، واحتل أرضه ، ومارس ضده شتى صنوف القهر والظلم والاضطهاد .

وكلا الشعبين ـ ثانياً ـ ذو كيان قومي راسخ تجذر عبر التاريخ واستحكم ، وأريد له بين عشية وضحاها أن يتفتت ويتلاشى ويزول ، أريد له أن ينسى تراثه وينسلخ عن لغته ، ويتجاهل هويته ، وحين طالب بالانصاف أو الاصلاح جوبه باشد أنواع البطش والارهاب والتنكيل ، جوبه بالحديد والنار والقتل ولتجويع والتشريد .

وكلا المجتمعين ـ ثالثاً ـ له كبناء سامق ومتماسك ـ ملامحه وتقاليده وتطلعاته وأحلامه ، وله ـ كأفراد ـ حقه في أن يحيا حياة حرة كريمة فوق تراب

وطنه الطهور ، ويوم رفع رأسه عالياً ينشد الحرية ، ويطالب بالحقوق ويهتف أبناؤه بأنّهم مواطنون لا رعايا - كانت ساحات الإعدام والإبادة الجماعية وأعواد المشانق والدم الصيّب الهتون يتدفق كالسيل - ردّ الطغمة العنصرية الحاكمة عليه وعلى مطالبه وهتافاته .

من أجل ذلك كلّه لم أتردد قط لحظة حين رأيت أن أتناول جوانب من قضية الأرمن بالدرس والبحث والتعليق فكان هذا الكتاب « مجازر الأرمن وموقف الرأي العام العربي منها » باكورة أعمال متتابعة يمكن أن ترى النور جميعها قريباً سواء كنت أنا الكاتب الوحيد فيها أو أحد كتابها .

ولعلّي أذكر أنّي حاضرت في أدبياتهم مرتين مرة يوم تحدثت عن الشهادة والشهداء ، ومرة حين تناولت آفاق قضيتهم في الوقت الراهن ، وما خلصت اليه هو أن الشعب الذي ضحى وما فتىء يضحي يطالب بثلاثة أمور هي كلها حقوقه الإنسانية المشروعة : الاعتراف بالمذبحة ، والتعويض عن الجرائم ، والعودة إلى الأرض .

وقد يحلو للمرء أن يقارن في نطاق هذه الأمور بين قضيتين . . قضية الأرمن ، والقضية الفلسطينية ، قضية العرب الأولى والمركزية ، فبينهما - على الرغم من بعض الاختلاف - الكثير من وجوه الشبه على مختلف الصعد ، فكلا الشعبين - أصحاب القضية طرد من أرضه ، وهجّر إلى أرض الشتات وأضحى خارج الوطن ، وكلاهما يطالب بالتعويض وبالعودة وبإقامة دولته المستقلة فوق ترابه المحرر . أما الفارق فانّ للقضية الفلسطينية أو لأصحابها موطىء قدم هنا أو هناك داخل أو خارج الأرض المحتلة تستطيع الحركة الوطنية أن تنطلق منه للنضال والقتال ، وليس كذلك الأرمن ، ومع هذا فإلى أين انتهت القضية العربية في الوقت الحالي ؟ انتهت إلى أن أضحت قضية لاجئين وقضية أراض احتلت بعد الخامس من

حزيران ، وقضية تعايش سلمي وتطبيع للعلاقات ، ونسيت أو تنوسيت أرض المركز ـ الأم .

أنّ القضية الأرمنية كالقضية الفلسطينية لن تحلّ في جيل أو في أجيال فقد تستمر قروناً طويلة ، أو هكذا يجب أن تبقى ، كما استمرت حروب الفرنجة ضد امتنا العربية ، حسب القضيتين الآن أن تظل كلتاهما حية في نفوس أبنائها وشبابها والمدافعين عنها ، حسبها أن تحيا موّارة فوّارة دافئة في القلوب والعقول ، وأن تنتقل كذلك من جيل إلى جيل .

وليست هذه الكلمات التي أقدمها إلى القارئين العربي والأرمني سوى محاولة بسيطة ومتواضعة حتى تبقى القضيتان ـ العربية والأرمنية ـ أو القضية الواحدة والمتشابهة حية في النفوس كما هي في العقول .

حلب في الأوّل من آذار 1992 .

نعيم اليافي

لماذا قضية الأرمن ؟

إذا كانت جرائم القتل ، وأعمال الإبادة التي ارتكبها الأتراك ، بحق الأرمن ، تصدم الضمير الإنساني وتدفعه إلى الاحتجاج ، ورفض هذا الاسلوب المتوحّش في التعامل بين بني البشر ، فهي ذات صدى مزدوج في وجدان الانسان العربي : فقضية الأرمن مأساة بشرية عامة من جانب ، وهي من القضايا اللصيقة بفجائع الأمة العربية من جانب آخر . وبتعبير أوضح : انّ ما هو إنساني في الموقف من قضية الأرمن يتخذ عند العرب بعدين : عام ، وخاص ، وهما بعدان يحتاجان إلى الشرح والتدقيق .

يبدو الدافع الإنساني العام ـ أول وهلة ـ ذا طابع عاطفي تمليه الطبيعة البشرية الخيّرة ، ويظهر من خلال مشاعر التضامن ، والمساعدة ، وما شابهها . لكنّه ـ في الحقيقة ـ دافع متعدّد الأوجه ، وقد يكون الكلام عنه عرضة لمنزلقات كثيرة سواء على الصعيد الفكري ، أو على الصعيدين السياسي والتاريخي . ولعل أخطر هذه المنزلقات تعميم الأحكام ، وأحادية الجانب . وكيما نتجنّب ذلك سنقصر حديثنا على الملابسات التي أحاطت بقضية الأرمن جاعلة منها ـ بصورة أو بأخرى ـ مشكلة الانسان أيّنما كان ، لا مشكلة الانسان الأرمني فقط ، وإن كان هو الضحية .

انّ أيّ كائن بشري متمدّن يقرأ عن مجازر الأرمن التي نفذها الأتراك عمداً ووفق مخططات مرسومة ، سيشعر بجرح مخجل ينحفر في داخله ، ويدفعه دفعاً قوياً ليعيد النظر بمجموع القيم التي تسود عالمنا . بل انه سيجد نفسه وسط دوّامة من تساؤلات لا تنتهي ، ربما كان أكثرها إيلاماً التساؤل المتعلق بالدرس الذي تعلمته البشرية من جريمة الأتراك الفادحة ، وبمدى مساهمة التاريخ في الوفاء لمآسي الشعب الأرمني ذي الحضارة العريقة ! فالتاريخ نفسه يزيد في عمق الأسى إذا تذكرنا أن الدول القوية في العالم تجاري الأتراك في تزوير حقائق ما قام به الطورانيون لإفناء الأرمن كلياً . حتى أن أصحاب النيات الطيبة يكتفون بإبداء روح التعاطف مع الأرمن وهم يحيون ذكرى شهدائهم كلّ عام ، وكأن القضية - التي حولتها عصبة الأمم إلى الأرشيف - غدت منتمية إلى ماض ينبغي نسيانه طوعاً أو كرهاً .
ولا تزال السلطات التركية تدأب لفرض رغبتها في محو مجازر الأرمن من التاريخ ، حتى لو اقتضى الأمر التدخل في الشؤون الداخلية الجزئية لبلد ليبرالي كفرنسة ، حيث حاولت هذه السلطات عام 1973 أن تمنع الأرمن في مدينة مرسيليا من تدشين صرح تذكاري لتخليد ضحاياهم في المذابح التركية . وعندما عزم صاحب دار نشر فرنسية على نشر كتاب « كارزو وعنوانه : جريمة نموذجية لإبادة الجنس البشري » ، هددته الحكومة التركية بإغلاق فرع داره في تركية . ومع أن الكتاب نشر في دار أخرى لا يطالها التهديد ، ما كان أمام الناشر إلا أن يرضخ ويمتنع عن نشر الكتاب .
ولا تدّخر السياسة التركية جهداً ، ومنذ مطلع السبعينات خاصة حيث نشط الأرمن في إثارة قضيّتهم في المحافل الدولية ، من أجل الاحتيال على التاريخ ، وعلى لجنة حقوق الإنسان كي تلغي وقائع المجازر الأرمنية من تقاريرها ، ويزعم الأتراك ، فوق ذلك ، أن الأرمن (الذين جاهدوا في سبيل الحفاظ على أنفسهم من الموت على أيدي الطورانيين) جماعة ارهابية ، وأنّ الترك لم يقتلوهم ولم يشرّدوهم ، بل هم الذين كانوا يقتلون الترك

ويرتكبون ضدهم مجازر إبادة جماعية . وبهذه الطريقة من الإنكار وقلب الحقائق يدفن الماضي مع الأرمن في مقبرة واحدة !!

لكنّ مجازر الأرمن تؤكّد حقيقة جوهرية هي أنها ـ وإن مضى عليها ما يقرب من ثمانين عاماً ـ تجمع بين الماضي والحاضر ، وتمثّل في المنظور الإنساني حاضراً دائماً يصم ما نسميه « المجتمع الدولي » القائم في ظاهره على العدالة والمساواة ، والاعتراف بحقوق الشعوب كافة في الحياة والحرية وتحقيق الذات الحضارية ، بينما تقبع وراء هذا الظاهر غايات تتناقض معه أو تكاد . ولا يحتاج المرء ـ كي يفهم سرّ هذه المفارقة ـ إلى أكثر من قراءة بسيطة لتاريخ العلاقات الدولية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية . فخلال هذه الفترة التي تكتنف ما نحن بصدده الآن ، كانت المطامع الاستعمارية هي التي تحدد سياسات الدول الكبرى المتصارعة فيما بينها على مناطق النفوذ ، ولا سيما في الأصقاع التابعة للامبراطورية العثمانية المتداعية .

وحالما تكون السياسة في الساحة الدولية أداة لتحقيق المكاسب والأطماع (وهذا ما كان يطمح لتحقيقه رؤساء حكومات الدول الاستعمارية) ، يصبح الكلام عن القانون الدولي ، وعصبة الأمم ، وحقوق الشعب ، ضرباً من العزاء للأمم الصغيرة والمسالمة أو الضعيفة ، وقد صارت ضحية صراعات وحروب لا علاقة لها بها . وإن حاولت أن ترفع صوتها لتطالب بمكانها على الأرض على نحو ما فعل الأرمن وهم يرون أنفسهم مجتثين من وطنهم ، صار مصيرها مرهوناً بإرادة الدول الأقوى التي تنتهج السبيل الذي تستدعيه مصالحها . فإثر تحالفات الدول المتنافسة على اقتسام تركة « الرجل المريض » وهي انكلترا ، وفرنسة ، وألمانية ، وروسية القيصرية ، حاول السلاطين العثمانيون أن يحققوا استقرار امبراطوريتهم التي كانت على وشك

التصدّع بضمان التحالف مع ألمانيا ، واستثارة الحسّ الديني الاسلامي ، واسترضاء انكلترا وفرنسة لتقفا إلى جانبهم ضد العدو الروسي ، وذلك لقاء بعض الامتيازات في السلطنة .

ومع ظهور الطورانية التركية ، واستغلالها للعصبية الاسلامية ، جنح حزب الاتحاد والترقي إلى إزاحة كل ما من شأنه أن يعيق تتريك الرعايا التابعين للإمبراطورية العثمانية كالعرب ، والأرمن والأكراد وغيرهم . ولم يلبث أن يكشف عن نياته العنصرية في القضاء على حضارة الأرمن ، ليس باعتبار بُناتها « كفاراً » وحسب ، بل لكونهم جسماً غريباً قد يحول دون السيطرة على المقاطعات التي يستوطنون فيها ، ويرغب في ضمّها إلى تركية . فوجود الأرمن وهذه الغاية نقيضان ، ولا بدّ من زوال التناقض وذلك بتهجير الشعب الأرمني وإبادته .

وبينما شرع السلطان عبد الحميد يفتك بالأرمن ، جعلت الدول الكبرى تحسب مواقفها قياساً على امتيازاتها في السلطنة . وهي ـ وإن أبدت استعداداتها لمساعدة المنكوبين ، وحض الباب العالي على إجراء الإصلاحات في الولايات الشرقية حيث الأرمن ـ كانت تتواطأ مع العثمانيين بشكل أو بآخر ، وعلى الأغلب من خلال اتفاقيات سريّة ثنائية أو ثلاثية أو رباعية بحسب مقتضى الحال . ولو تفاءلنا مفترضين أن المواقف الدولية ـ في تلك الفترة ـ لم تكن بهذه الحدّة الفضائحية ، فما معنى أن يمحى من الوجود مليون ونصف المليون من الأرمن خلال أقل من نصف قرن ، ويشرّد الباقون ببربرية لا حدود لها ؟ ثمّ ما معنى أن يصل الشعب الأرمني بعد نضاله المرير ، وتضحياته الكبيرة إلى تحقيق حلمه في دولة مستقلة أقرّتها معاهدة سيفر عام 1920 ، واعترفت بها الدول الكبرى ، ووقّع على استقلالها الأتراك أنفسهم ، وتأتي الدول الاستعمارية لتسحب اعترافها بالدولة الأرمنية في معاهدة لوزان عام 1923 ، هذه المعاهدة التي فرضتّها

المصالح الدولية ، والمعاهدات السرية مع تركيا ! والأنكى من ذلك هو أن معاهدة لوزان أبرمت في غياب ممثلي الأرمن الذين فرض عليهم أن ينفذوا بنودها وحسب ؟ !

وهكذا نجد ـ بحسب الدافع الإنساني ـ أنّ الكتابة عن قضية الأرمن لا تكتفي ـ بالتأريخ التسجيلي الذي يستقصي أخبار المجازر ويثبتها على أنه وقائع تاريخية فقط ، إنما تتجاوز ذلك لتحلّل جملة الأسباب والعلل التي أدت إلى ارتكابها . ومن ثمّ يكون التأريخ علماً للتاريخ قوامه فعل فكري ـ كفاحي يحيط بالحقيقة التاريخية ، ويندّد بالجريمة ، ويعرّي الهمجية المعادية للحياة البشرية ، مرسخاً ما هو ناهض في الحضارة ، ومحارباً كلّ ما يعيقها ، ويزوّر فيها ، ويشوّهها . ولن يعني هذا الموقف أكثر من وضع الأمور في إطارها الصحيح : فحقّ الوجود ، وحرية الحياة عزيزان على الشعوب كلها ، وانتهاكها هو انتهاك لمثل عليا إنسانية سيظل قائماً ما لم يتنبّه المجتمع الدولي إلى ضرورة محاكمة المجرمين بحق الحضارة . وهذه مهمة تقع ـ بالدرجة الأولى ـ على عاتق الدول العظمى صاحبة الشأن في صياغة القرارات النافذة وتدعيم قوّتها . وإلا فلن تخرج البشرية عن نطاق شريعة الغاب إلا بقانون واحد : المقايضة . ونحن نحسب أنه لمّا كانت المصالح الدولية ـ لا القانون الدولي ـ هي التي تملي على الدول مواقفها السياسية النهائية فإنّ الثغرات تبقى مهيأة لنمو النوازع العنصرية والعرقية والمنافية لرقّي الإنسان وتمدنه . ولو أنّ العالم أوقف الطورانيين عن عمليات تهجير اليونانيين من مواطنهم ، وشجب بربريتهم ، لما أقدموا على ما هو أدهى وأفظع في إبادة الأرمن ، فلنقرأ ما يسجّله سفير الولايات المتحدة الأمريكية في تركية هنري مورغنتاو بهذا الصدد : « يمكننا أن نؤكد هنا أن عدم اعتراض العالم المتمدّن ضدّ هذا التهجير شجّع الأتراك (فيما بعد) ليقرروا تطبيق الطرق نفسها ليس على اليونانيين وحسب ، بل على الأرمن ، والسريان والنسطوريين ، وغيرهم من الشعوب الخاضعة لهم . » . ولنا أن

نذهب إلى أبعد من ذلك لنرى ـ دون أن نهمل أهمية الظروف الموضوعية في سيرورة أحداث التاريخ ـ أنّنا لم نزل ـ ونحن نلج أبواب القرن الواحد والعشرين ـ نشهد موجات عنصرية أذاقت البشرية وتذيقها الويلات من قمع وحروب وقتل جماعي . وما حصل أمس للأرمن حصل للعرب ، وللأكراد ، ، ولشعب جنوب أفريقيا ، وقد يحصل لأي شعب ، ولأية أمة مهما كانت حضارتها زاهرة في الماضي ، ومهما كان حقها ساطعاً . مما يحوّل قضية الأرمن إلى همّ عالمي إنساني لا يزيحه إلا تطبيق العدالة وسيادة الأعراف الدولية الحضارية .

أما البعد الخاص الذي يجعل من قضية الأرمن موضوعاً شاغلاً للإنسان العربي فمردّه هو أن البلدان العربية خضعت للعثمانيين ، وذاقت منهم المرارة والاضطهاد على الرغم من الرابطة الدينية . وقد تعامى الخلفاء العثمانيون ، كما تعامى الاتحاديون من بعدهم ، عن المنجزات الحضارية للأمم التي وقعت تحت سيطرتهم ، وأعملوا فيها أسباب التجهيل ، والتخريب حتى صارت في الدرك الأسفل للإنحطاط . ولم ينج العرب ، وهم الأعرق ، والأكثر تحضراً من الأتراك ، والأكثر عدداً ، من مشروع التتريك ، والتهجير والإعدام . وما عاناه الفلاح الأرمني . لا يقلّ عمّا عاناه الفلاح العربي إبان الاحتلال العثماني . ولم يكن التتريك ليعني أصلاً غير سحق العناصر غير التركية بمطرقة تركية كما أشار وزير الخارجية البريطاني أدوار غراي .

وتجدر الإشارة إلى أن دور الصهيونية الاجرامي في مجازر الأرمن وجد فرصته السانحة لاسترضاء العثمانيين ، وحملهم على السماح بالهجرة اليهودية إلى فلسطين . وقد أثبتت الوثائق التاريخية أن اثنتين وعشرين مستعمرة أقيمت في فلسطين في عهد السلطان عبد الحميد الثاني والحكومة الاتحادية ، وتحديداً بين عامي 1882 و 1913 . ويذهب بعض الدارسين إلى أن « النزعة الطورانية » ليست سوى تقليد للحركات القومية في أوروبة ،

وما كانت لتدخل إلى الإمبراطورية العثمانية لولا بعض الكتاب والمفكرين الأجانب وعلى رأسهم المفكر اليهودي البولوني قسطنطين بروجتسكي « الذي نشر في سنة 1889 كتاباً بعنوان : « الأتراك القدامى والجدد » وباسم مستعار « مصطفى جلال الدين باشا » ، يروي أساطير حول أمجاد العرق التركي في التاريخ القديم ، ويحرض الأتراك العثمانيين الجدد ويدفعهم إلى استرداد الأمجاد الضائعة . . . . » . كذلك حدد اليهودي الألماني « فرانزفون ويرنر مهمّات الأتراك الجدد وبرنامجهم السياسي عبر نشرة فيها تحضير لميثاق « تركية الفتاة » تحت اسم مستعار أيضاً « مراد أفندي » . وكان أكثر المحرضين على فكرة التفوق التركي ألبرت كوهين من سالونيك واسمه المستعار « تكين ألب » إذ ألف كتاباً باللغة الألمانية عنوانه « تركية والبانتركية » يدعو فيه إلى وجوب توحيد الشعوب المتحدة من أ [illegible] ـركي وتتريك الشعوب غير التر [illegible] المستبعد الا بحرون الصهيونية قد جعلت من « الطورانية » مقدمة لدخول « أرض الميعاد » : لأن ما تتالى من أحداث في أرمينية وفي الوطن العربي يرجّح ذلك ويكاد يؤكده . فمع توالي المحن على الأمة العربية التي وقعت ضحية المقايضات نفسها بين الحلفاء وتركية من جهة ، والامبريالية والصهيونية من جهة ثانية ، تمّ سلخ لواء اسكندرون عن سورية عام 1939 ، وانزرع الكيان الصهيوني على جثث الشعب الفلسطيني ومآسيه .

وهكذا يبدو للعيان أن عدو الأرمن والعرب واحد ، وهمومهما التاريخية متشابهة ومترابطة أيضاً . فلا غرو أن تتحد مشاعرهما اتحاداً تضامنياً نضالياً يعزّزه ما كان من علاقات ودّية بينهما في الماضي ، وما هو قائم بينهما من أواصر يمثلها المواطنون الأرمن في الوطن العربي ، وفي سورية ولبنان خاصّة .

الأرمن والعرب أصحاب حق تاريخي ، وفي كفاحهما الدائم قوة

لا يستهان بها ، تقف في وجه العنصرية ، والصهيونية ، وتسهم في خلق وعي حقيقي للذات الحضارية لكلا الشعبين . هذا الوعي الذي يكتسب أهميته البالغة في ظروف العالم الراهنة ، ولا سيما بعد تفكّك الاتحاد السوفييتي وما قد يجره من مشكلات دولية وإقليمية ، وبعد أن ألغت الأمم المتحدة القرار الذي يعد الصهيونية شكلاً من أشكال التمييز العنصري . فهاتان المسألتان تجسدان تحولاً تاريخياً يمس قضيتي العرب والأرمن أكثر من أية قضية أخرى . ولذا سيكون في إعادة تناول قضية الأرمن عبرة للحاضر وللمستقبل بعد أفول القرن العشرين الذي كان القتل الجماعي داءه العضال . . .

ملحمة القتل والذبح

يقسم الدارسون عمليات إبادة الأرمن منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى من أوائل القرن العشرين إلى ثلاث مراحل :

1 ـ مرحلة السلطان عبد الحميد (الإمبراطورية العثمانية) من 1894 ـ 1909 .

2 ـ مرحلة الأتراك الشباب (جمعية الاتحاد والترقي) وارتكابهم الجريمة الكبرى في 24 نيسان عام 1915 .

3 ـ مرحلة تركيا الكمالية بدءاً من عام 1919 حتى عام 1923 .

لكنّنا سنركز حديثنا على المرحلتين الأوليتين لأنهما الأكثر تعبيراً عن المخطط الطوراني الجماعي للأرمن ، وسيكون الحديث عن المرحلة الثالثة متضمّناً في فقرة « الموقف الدولي من قضية الأرمن » .

آ ـ مرحلة السلطان عبد الحميد

لم تكن مذابح الأرمن لعام 1915 حدثاً لا سابقة له في تاريخ الأتراك

العثمانيين ، لأنها وجدت أصولها في عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي أفرغ في الأرمن حقداً أعمى تمخّض عن عمليات إبادة منكرة . فبعد هزيمة العثمانيين أمام روسية عام 1878 ، وتوقيعهم على معاهدة سان ستيفانو التي نصّت المادة (16) منها على وجوب إدخال الاصلاحات في المناطق الأرمنية ، وضمان سلامة الأرمن ، انتقلت القضية الأرمنية من إطارها المحلي إلى الإطار الدولي . مما دفع الباب العالي ليبتدع من هذا الواقع ذريعة للبطش بالمواطنين الأرمن . فالمجازر لم تأت ـ في الحقيقة ـ إلا انعكاساً لروح فاشية عنصرية ولدّتها نزعة القومية الطورانية التي جنحت لتتريك الشعوب الواقعة تحت سيطرتها ، مستخدمة العنف والتنكيل في معالجة القضايا الناجمة عن هذه السياسة العرقية . وهذا ما عبر عنه الصدر الأعظم كوتشوك سعيد باشا عام 1884 مقرّراً بصدد الأرمن « أنّ أنجع وسيلة لإنهاء القضية الأرمنية هي القضاء على الشعب الأرمني . » . ولمّا كانت صاصون تتمتّع بنوع من الاستقلال عزم السلطان عبد الحميد على أن تقدم له الوحدات الحميدية التابعة له منطقة صاصون من دون أرمن ، وكان أن رفع شعار : « صاصون من دون صاصونيين » . واستجابة لهذه الرغبة المبيتة ، أشعل الحميديون فتيل المآسي في أرمينية العثمانية ، وكانت بعض القبائل التي دفعت بالترهيب وبالترغيب أداة فعالة لإشعاله . وقد بلغت مجازر صاصون ذروتها عام 1894 عندما زحفت القبائل ومن ورائها الجيش التركي ، وحاصروا القرى المحيطة بصاصون التي سرعان ما تحولت إلى ساحة للقتال غير المتكافىء بين عدة مئات من ثوّار الأرمن ، وقرابة عشرة آلاف قبلي ، وعدة كتائب عثمانية . وامتد الهجوم إلى ضالفوريك ، وجبل أنضوك حيث اشتعلت الحرائق في اثنتين وثلاثين قرية ، وبعد احتلال قرية كليكوزان « ربط الترك ما كان قد تبقى من الأرمن في القرية بعضهم ببعض وغطّوهم بالنشوخ ثم أحرقوهم . وفي مكان آخر كانوا يقذفون الناس فوق حراب مسدّدة إلى أعلى ويضربونهم حتى الموت . وكانوا يجمعون البنات والنساء في الكنائس ، فيعتدون على أعراضهن ، ثم يحرقونهن جميعاً ، ويذبحونهنّ

بالسيوف (. . .) حتى أنهم كانوا يبقرون بطون الحوامل ، فيخرجون منها الأجنة ثم يمزقونها بسيوفهم » . وكان التفنن في قتل الأطفال والشيوخ غاية ممتعة عند الجنود الحميديين الذي أمرهم السلطان بألا يأسروا أحداً من الأرمن : فالجوّجوّ إبادة لا جوّ حرب . وكانت حصيلة هذه المجزرة عشرة آلاف أرمني .

وانتشرت المجازر ، من بعد ، في أرمينية الغربية كلها ، في طرابزون ، وأرضروم ، وتبليس ، وفان ، وديكراناكيرد ، وسيواس ، وأضنة وغيرها . غير أن الأرمن لم يستكينوا ، وأبدوا شجاعة كبيرة في تصدّيهم للحملات المتكررة دون انقطاع . ولعل هذا ما حمل السلطان عام 1903 على تشكيل وحدات مسلحة من المجرمين وقطاع الطرق سمّاها بـ « قابض الأرواح » ، ووجهها إلى المناطق الأرمنية .

وفي الثاني من نيسان عام 1904 سيّرت كتائب الجيش العثماني بكثافة كي تجتاح مدن الأرمن وقراهم . وكان ذلك بقيادة البنباشي كيوسا الذي استعان بنيران المدفعية لتمشيط القرى قبل دخولها . ومع ذلك صده الفدائيون الأرمن بعناد بطولي ، بعد أن أخلوا صاصون من سكانها ، واحتموا بالمرتفعات الجبلية المغطاة بالثلوج ، واستطاعوا أن يؤخروا سقوط ضالفوريك حتى الحادي والعشرين من نيسان ، واثر ذلك أعمل الأتراك مشاعرهم الحاقدة ، وأخذوا ينتقمون من أهلها « فكانوا يسبون النساء ، ويقطعون أثداءهن ، ويبقرون بطونهن ، ويجلسون الأطفال على السيوف ، ويقطّعون أوصال المسنين إرباً إرباً » . وخلال عشرين يوماً بعد معارك صاصون ، ارتفع عدد الضحايا إلى ثمانية آلاف ، ومع اتساع نطاق المذابح أصاب الخراب الكامل (2500) مدينة وقرية ودسكرة ، ذهب فيها قرابة عشرة آلاف ضحية ، كما شهدت كيليكية مذابح رهيبة قضى فيها عشرون ألف أرمني ، وبذلك بلغ عدد الرعايا الأرمن الذين أبادهم السلطان عبد

الحميد قرابة ثلاثمئة ألف . بيد أن الأرمن احتفظوا بآمالهم في التخلّص من هذا الواقع الجائر وأبدى الاتحاد الثوري الأرمني إخلاصه لثورة الشباب الليبراليين الأتراك في جمعية الاتحاد والترقي التي تم بموجبها خلع السلطان عبد الحميد نهائياً عام 1909 . فما الذي حصل بعد ذلك ؟

ب ـ مرحلة الأتراك الشباب (جمعية الاتحاد والترقي)

لقد كان هدف المجموعة المتنورة من الشبّان الذي أسسوا جمعية الاتحاد والترقي أن تحصل شعوب الدولة العثمانية على حقوقها بعد القضاء على الاستبداد الحميدي . وانطلاقاً من الأفكار الليبرالية التي تأثروا بها ، دعوا أنفسهم بـ « الأتراك الجدد » ولما استعدوا لعقد أول مؤتمر لهم في باريس عام 1902 ، شاركهم فيه ممثلون عن الأتراك والأرمن واليونانيين والعرب والأكراد واليهود وغيرهم . لكن المؤتمر انفضّ عن انشقاق عميق بين تيارين : تيار ليبرالي تزعمه الأمير صباح الدين ، واسماعيل كمال الألباني ، وتيار متعصّب للقومية التركية بزعامة أحمد رضا . كان التيار الأول يجهد من أجل « إرساء نظام دستوري يقلل من مركزية السلطات حيث يحصل كل شعب غير تركي على نوع من الحكم الذاتي » . وكان التيار الثاني يرفض أي خروج على ضرورة ربط الدولة العثمانية بالقومية التركية دون المساس بمركزية السلطة . ومع ذلك استمر الشباب الأتراك بنضالهم خارج الإمبراطورية العثمانية وداخلها ، إلى أن نجحوا في خلع السلطان واستلام الحكم عام 1909 . فأقروا الدستور والحريات الفردية ، وتعهدوا بضمان رعايا الإمبراطورية كافة « ونتيجة ذلك سادت موجة من الابتهاج خلال بضعة أشهر ، وتآخى الأتراك ، والأرمن ، واليونانيين ، والعرب والأكراد في سائر أرجاء الإمبراطورية .

لكن التيارالمعتدل في جمعية الاتحاد والترقي ما لبث أن تراجع أمام نفوذ كل من أنور باشا ، وطلعت باشا اللذين عزّزا موقعهما ، وجرفا الجمعية لتتبنّى العقيدة الطورانية وتحل محل الاتجاه العثماني . ولجأ الحكام الجدد إلى الأسلوب نفسه الذي اتبعه السلطان عبد الحميد معتبرين أن الأتراك فوق القوميات الأخرى . ووسعوا حدود اضطهادهم للأرمن بصورة مرعبة للقضاء عليهم بأسرع ما يمكن ، وفي مناخ من التكتم وإخفاء الحقائق . لذلك سنعتمد في إظهار فظاعة المذابح الكبرى لعام 1915 ـ ونحن نعرضها في سيرورتها الزمنية ـ على ما كتبه المؤرخون ،، وما أفاد به شهود عيان ، وعلى ما سجله بعض الدبلوماسيين الأجانب في مذكراتهم . ونودّ أن نشير هنا إلى أن تعدد الروايات والأخبار لا يسمح بسلسلة المجازر بصورة متتابعة لا تداخل فيها ، على أننا رأينا ـ مع مراعاة هذا التداخل ـ أن نقسمها إلى ثلاث مراحل حاولنا أن نأخذ بها قدر المستطاع ، ونوردها وفق الآتي :

1 ـ المرحلة الأولى من 2 / 1 / 1915 ـ 18 / 5 / 1915 :
بدأت الحكومة الاتحادية بتنفيذ المجازر في شهر كانون الثاني من عام 1915 إذ تم تشكيل لجنة من الدكتور ناظم ، والدكتور بهاء الدين شاكر ، ووزير التربية شكري ، مهمتها التخطيط لإبادة الأرمن . وصدر قرار متزامن مع تشكيل هذه اللجنة يقضي بإطلاق سراح عشرة آلاف مجرم وسارق من السجون ،، وتسليحهم ، وتنظيمهم ضمن فرق ارهابية ، وتوجيههم ضد قوافل المهجرين من الأرمن . وعلى أعقاب هجمات الجيش التركي على الجبهة القوقازية في الفترة نفسها ، تعرض الأرمن في أرتوين ، وأرضانوش وما يحيط بهما من قرى لاعتداءات هذه الفرق ، ولهجمات القبائل والكتائب الاتحادية . فراحوا يهربون من منازلهم بحثاً عن منجى يقيهم شرّ الهلاك ، وتخلص قسم كبير منهم من الموت عن طريق عبور الحدود الروسية ، إذ راحت قوافلهم تتجّه نحو ايتشميادزين . وقد قدّم مندوب حزب «

الطاشناق » في « فان » لوالي أرضروم احتجاجاً على هذه الأحداث ، وكان احتجاجه صيحة في واد . ولشدّ ما لجأ الاتحاديون إلى الوسائل المنافية للأعراف الإنسانية على غرار ما فعلوا بأهالي قرية زيتون الذين استقبلوا لواءً عسكرياً تركياً بالراية البيضاء ، وعبّروا عن استعدادهم للمساعدة في القاء القبض على مجموعة من الشبان المشاغبين ، وحددوا مكان الدير الموجودين فيه . ولما لم ينجح الجيش في القبض عليهم أحرق الدير ، ونفى ثلاثمئة رجل خارج القرية ، وسيق حوالي ثمانية آلاف إلى قرابويكر في ولاية قونية ، وهجّر الباقون إلى دير الزور ، وأغلبهم ماتوا على الطريق .

وفي الخامس عشر من نيسان تجمّع حوالي خمسمئة من شباب الأرمن لسماع أوامر السلطان ، وعند الغروب ساقهم الأتراك خارج المدينة ، وأعدموهم رمياً بالرصاص . وبالطريقة نفسها تم قتل (24,000) أرمني خلال ثلاثة أيام . ومن أحداث القتل المتوحش الحادثة الآتية التي يوردها السفير الامريكي في تركية آنذاك ، في مذكراته « قتل أمة » « جرت مشّادة في قرية شاداخ بين الأرمن والأتراك ، فطلب جودت بك من أربعة زعماء أرمن أن يذهبوا إلى القرية لتهدئة الوضع . قام هؤلاء الرجال بالرحلة ومروا بالقرى الأرمنية يحثّون الأهالي على الاحتفاظ بالهدوء . وبعد انتهائهم من أداء مهمتهم ، تمّ قتلهم في إحدى القرى » .

وانتهز جودت بك فرصة الاشتباكات بين الأرمن والأكراد ، فأمر قادة الامدادات التي وصلت من أرضروم ببدء الإبادة في أرجيش ، ووادي الأرمن ، بينما انقضّ هو على فان . وفي العشرين من نيسان نشبت المعارك في فان على اثر اغتصاب الجنود الأتراك لامرأة أرمنية ، فحاولت مجموعة شبّان أرمن الدفاع عنها ، فرماهم الجنود بالرصاص . واستمرت المقاومة الأرمنية حتى السادس عشر من أيار . وفي الثامن عشر منه دخلت القوات الروسية المدينة ، وانسحب الأتراك منها ، وقاموا بمزيد من المجازر في القرى

المسالمة انتقاماً لهزيمتهم ، وتهدئة لغضبهم و « دمّر مشفى الدكتور آشر ، طبيب البعثة التبشيرية الأمريكية بالمدفعية التركية . الدكتور آشر هو شاهد عيان للرواية التي تقول أنه بعد طرد الأتراك بدأ الروس بجمع جثث الأرمن الذين قتلوا في المنطقة وأحرقوها . كان عدد المحروقين (55) ألفاً .

لقد انهزم الأتراك ،عملياً أمام المقاومة الأرمنية التي لم تكن تتألف كلها ـ كما يذكر مورغنتاو ـ إلا من (1500) رجلٍ فقط ، كان عندهم ثلاثمئة بندقية وذخيرة غير كافية ، بينما كان لدى جودت بك جيش مدرب تعداده «500» رجل مجهزين بشكل كامل . لذا أججَّ الأتراك قصفهم المدفعي في دارون ، وفي الأحياء السكنية في موش خاصة . فاضطر السكان لحرق بيوتهم كي ينجو من أعدائهم ، وحاول ما يقرب من عشرين ألفا منهم الفرار ، لكن نيران البنادق حصدت حوالي نصف هذا العدد . وعند الصباح جمع الجرحى الأرمن وألقوا في النار . وتواصل الزحف التركي باتجاه صاصون ـ وكان احراق القرى والمزارع وسيلة الجنزد الأتراك المفضلة ـ ممّا أجبر حوالي ثلاثين ألفا من سكانها على اللجوء الى المرتفعات الجبلية التي بلغ عدد اللاجئين إليها مع عدد السكان السكان المقيمين خمسين ألفا . وقرّر هؤلاء عدم تسليم اسلحتهم كما سلمها الجنود الأرمن في الجيش التركي . فحشد الحكومة ثلاثين ألف عسكري من القبائل وحاصرت صاصون . فوجد الأرمن أنفسهم مجبرين على الانسحاب إلى جبل أنضوك وسقطت صاصون وأنضوك وما كان بوسع أحد أن يفرّ الى روسية هذه المرّة .

وكانت الجندرمة التركية قد اعتقلت في استانبول في الرابع والعشرين من نيسان عام 1915 ، (225) شخصية من مفكّري الأرمن وأدبائهم ورجال دينهم ، وتوجهت بهم الى أنقرة . ولما احتجت البطريركية الأرمنية ، ادّعى الحاكم سعيد حليم باشا أن اعتقالهم إنّما هو من جملة الاجراءات الأمنية للحفاظ على الاستقرار ، وأن الذين تمّ اعتقالهم هم رؤساء أحزاب مناوئة للحكومة . وبعد عدة أيام طلب من الأرمن تسليم أسلحتهم . وتم

ارسال (75) شخصاً من المعتقلين من أنقرة الى أياش . وقتلوا هناك ، و (150) شخصا نقلوا الى تشانكر ومثّل الجنود بأجسادهم . وإبان طلب الحكومة من المواطنين الأرمن تسليم أسلحتهم التي كان بعضهم قد استلمها في أثناء الثورة ضد السلطان عبد الحميد وبعدها ،أباح الجنود الأتراك لأنفسهم كل شيء ، فبهذه الحجة كانوا يداهمون البيوت ويطوّقون القرى ، وينتهكون الحرمات ، ويحدّدون كميات من الأسلحة تفوق ما كان عند الأرمن «وهنا يبدأ عذاب الموت كما يقول يروانت بامبوكيان ،اذ كانوا يجمعون في الساحة ويعذبونهم بطرق لاانسانية ، ينزعون اظافرهم ، يجلدونهم « الفلق »ويشدّونهم من شعرهم ، يحرقون أجسادهم بالحديد الحامي حتى الموت » .

2 ـ المرحلة الثانية من 21 / 4 / 1915 ـ 19 / 5 / 1915 : لقد دأبت الحكومة الاتحادية في مطلع عام 1915 على أن تنفذ خطة الابادة الارمنية باتباع مرحلتين تمهيديتين من شأنهما اطلاق يدها بحرية كاملة في ازالة أرمنية من الوجود « ففي المرحلة الأولى من الضروري جعل كل الجنود الأرمن في حال عجز تام ، وفي المرحلة الثانية يجب تجريد كل الأرمن من أسلحتهم في كل مدينة كبيرة أو صغيرة . فقبل ذبح أرمينية يجب أن تبقى من دون حماية » . ولما فرغت من هاتين المرحلتين في ربيع هذا العام ، تسنّى لها أن تبدأ المرحلة الأساسية الثانية لتصل من بعدها الى المرحلة النهائية ، وذلك بملاحقة كبار المفكرين والمسؤولين والأرمن الذين قد يكونون مصدرا للمتاعب . وكانت تتلو الاعتقال عمليات تعذيب في السجون ، ثم ينقلون الى مناطق خالية ويتمّ اعدامهم هناك . لكنه ليس كأيّ اعدام . فلنقرأ ما كتبه مورغنتاو عنه : «قبض على الرجال الأرمن في أنقرة بين سن (15 — 70) وربطوا كل أربعة ببعضهم ، وأرسلوا باتجاه مدينة القيصرية . وبعد مسيرة خمس أو ست ساعات وصلوا الى واد منعزل هاجمهم فيها غوغاء من الفلاحين الأتراك بالهراوات والمطارق والفؤوس

والمناجل والمجاريف والمناشير . تلك الأدوات لم تكن تسبّب الموت الفظيع بالمقارنة مع القتل بالأسلحة والمسدّسات وحسب ، بل ـ كما يقول الأتراك أنفسهم ، كانت تلك الطريقة أكثر اقتصادية ؛ لأنهم لم يضيّعوا سدى البارود والأغلفة النحاسية . بهذه الطريقة أبادوا كل السكّان الذكور بمن فيهم المثقفون والأغنياء في أنقرة . وتركت أجسامهم المشوّهة بشكل مفزع لتفترسها الحيوانات المتوحشة في الوادي » . وبعد هذه العملية اجتمع الفلاحون والدرك في « الحانة » المحليّة وفي جو من الصخب راح كل فريق يتبجّح بأنه قتل العدد الأكبر من الكفّار الأرمن !! واتماما لهذه المرحلة اعتقلت السلطات التركية (600) شخص من أرضروم ، و (500) شخص من سيواس ، و (800) شخص من ديار بكر ، و (200) شخص من قيسارية ليواجهوا المصير ذاته في الخلوات والبراري . وتهمتهم الوحيدة هي أنهم أرمن كما يعلّق مورغنتاو .

3 ـ **المرحلة الثالثة** : بدأت في شهر حزيران عام 1915 واستمرت قرابة عام كان الأتراك خلالها قد حولوا المناطق الأرمنية الى قفار ودمار . ففي حزيران كانت فاتحة الاجلاء الكبير اذ وجهت السلطات دعوة للذكور الأرمن ممن تتراوح أعمارهم بين 15 — 70 عاما لمراجعة مقرّ الحكومة . وعندما توافدوا يستطلعون الأمر تلقفتهم السجون ، ورحلوا بعد يومين . أما التهجير في مناطق البحر الأسود (طرابزون ، وكيراسون ، وريزا ، وأوردو) فكان فريدا من نوعه اذ حمّل الأتراك المواطنين في السفن ، وتركوهم في البحر ليموتوا غرقا .

وبعد أسبوعين جاء دور النساء والأطفال الذين بقوا معهن . فبحجّة وجوب اللحاق بأزواجهن ، طلب اليهن ترك منازلهن كما هي : لأنهنّ عائدات اليها بعد حين . وهنا اتخذ الابتزاز اشكالاً عديدة ، ولم يقتصر على نهب البيوت ، والسطو على الممتلكات ، بل تعداها الى انتهاك أعراض النساء واستباحة المحرمات كلها ، والى ما هو أدهى وأشدّ أيضا .

لقد كانت القوافل المهجرة تقسم الى جماعات يتراوح عدد الواحدة منها بين 200 — 400 شخص ، ترافقها كتيبة من جنود الأتراك بقصد الدفاع عنها وحمايتها فيما لو تعرّضت لهجمات قطاع الطرق . وما إن تصل فلول هذه الجماعات الى المناطق الصحراوية ، حتى يتراجع الجنود المرافقون لها ، تاركين المهمة لعصابات اللصوص التي شكلتها الحكومة لهذه الغاية ، وعلى الفور يبدأ هؤلاء باطلاق الرصاص على الأرمن ، ثم يقومون بتفتيش الجثث ونهبها . وكان يسمح للأتراك ولأفراد القبائل باختيار المرأة أوالفتاة التي يعجبون بها ، وشرائها بسعر شبه مجاني ، والجميلات كنّ يغتصبن عند الوقوف في كل محطة ، وكان الجنود الحرّاس يشاركون في عمليات الاغتصاب . وهكذا كانت أعداد الأرمن في القوافل المرحّلة تتناقص بكثرة نتيجة القتل ، والموت جوعاً أو تعباً من مشقات الطريق المفضية إلى صحارى سورية والعراق . وقد استهدف الأتراك أن تصل هذه القوافل بأقل عدد ممكن الى حلب باعتبارها نقطة تقاطع لطريقي كيليكية والأناضول . ولتكوين فكرة واضحة عن كيفية الإبادة بهذه الطريقة نثبت هذه الأمثلة : كانت القافلة المتوجهة من خربوت إلى حلب مؤلفة من (2500) شخص ، ووصلت الى حلب ب (600) شخص . والقافلة المتكونة من مهجري طربوت وسيواس وعدد أفرادها (18000) شخص ، بقي منها (350) شخصا ، وبحسب رواية الدكتور الألماني ليبسيوس لم ينج من الموت إلا (11) شخصاً من أصل (19000) مهجّر من أرضروم . وليست هذه نهاية المطاف : لأن هؤلاء الناجين سيتابعون طريقهم في الصحراء ليصيروا عرضة لأي احتمالات ، والموت هو المحتم بينها .

وفي صحارى سورية والعراق كان اكتمال الحلقة الأخيرة من سلسلة الابادة ، فهنا كانت الطبيعة والأتراك يصطلحان على حصاد هذه الكائنات البشرية ، أو على رميها في متاهات الاقدار التي سننقل بعضا منها مما قاله فيها نعيم بك ، المكلف بشؤون الأرمن المنفيين ، حيث يصف ما كان

يراه في منطقة رأس العين : « وشاهدت ، أمام القرية ، قافلة من البؤساء مؤلفة من مئات النساء والأطفال ، منتشرة على الضفة الأخرى من النهر (. . .) وكان غيرهم يعملون كحملة ماء من أجل الحصول على كسرة الخبز لسدّ رمقهم . . .وكان هؤلاء المنفيون البؤساء يأوون تحت الصخور في الوديان ، أو تحت تعرّجات الهضاب عندما كان الوقت صيفا ، ولكن حين جاء الشتاء كان يسمع أنينهم في الليل . فقد كانوا يموتون بردا وجوعا (. . .) لن أنسى أبدا تلك الليلة . كنت لدى القائمقام ، وفي الخارج كانت عاصفة قوية تلحق الخراب والدمار ، وعلى مسافة تبعد عشر دقائق ، كنا نسمع عويل وأنين هؤلاء البؤساء الذين كانوا تحت رحمة هذه العاصفة (. . .) إن موت هؤلاء البؤساء كان شيئا مفجعا بحد ذاته ، ولكن كنا أمام مشهد أفظع بكثير حين كانت الكلاب تنهش جثث بقايا الأرمن . . . »

ومالم يقدر عليه برد الشتاء والأوبئة في دير الزور ، والرقة ، ورأس العين ،ومسكنة ، أكمله جودت بك ، وزكي بك في مقاصلهم : ففي شهر شباط عام 1916 قام جودت بك بنفي حوالي (50,000) خلال أربعة أشهر ، وقتلهم بوسائل لاتعرف الرحمة ، منها ـ على سبيل المثال ـ أنه قام بنعل أرجل الأرمن كما تنعل أرجل الخيول ، ولذلك لقبوه « بنعّال الأشكيرد » . كما ساقت الحكومة نصف مليون أرمني من رأس العين الى دير الزور ، وتوجّه زكي بك ب (200,000) منهم نحو الموصل ، وقتّلهم جميعا على الطريق « فالتعب في الصحراء ، وعدم وجود ما يؤكل فيها مطلقا كانا قد أباد القسم الأعظم من هذه القافلة الكبيرة . أما القسم الباقي فقد أجهزت عليه عشائر البدو والقبائل » .

بعد هذا العرض المختصر لفظائع المجازر الأرمنية يبقى أن نتساءل عن حجمها البشري ، وعدد ضحاياها ؛ ذلك لأن الإحصاءات لم تتيسّر لها السبل لتعطي نتائج دقيقة . على أن ممن حاولوا تقدير أرقام قريبة من

الحقيقة هو المستشرق الألماني جوهانس ليبسيوس الذي أثبت من خلال الإحصاءات التي أجراها انّ عدد الأرمن كان قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى أكثر من مليونين بقليل ، وصار بعد هذه الحرب مائتي ألف فقط ، بقوا في مواطنهم ، واذا أضفنا اليهم من لجؤوا الى القوقاز وعددعهم (250,000) تبيّن أنه لايمكن أن يكون الباقون قد ماتوا جميعا في الحرب . ومن ثمّ يصل ليبسيوس الى أن ضحايا المذابح الأرمنية تربو على ثلثي الشعب الأرمني الذي كان يعيش في الامبراطورية العثمانية ، لتبقى صورتها ماثلة في ذاكرة من قيّض لهم أن ينجوا من الموت . ويالها من صورة جارحة شنعاء يلخّص بعض أهوالها قول مورغنتاو : « انني واثق أنه لاتوجد أحداث فظيعة كهذه في تاريخ الجنس البشري كله . ان المذابح والاضطهادات التي حدثت في الماضي تبدو تافهة بالمقارنة مع عذاب العرق الأرمني عام 1915 » .

أسباب ابادة الأرمن

اذا سلمنا بأن الحكم التركي بتأسيس امبراطورية طورانية تمتد من منغولية الى حدود البلقان كان وليد الشعور بتفوق عرقه ـ على سواه من شعوب الدولة العثمانية التي يجب أن تخضع له وتنصهر فيه ، فالسؤال الذي يطرح نفسه علينا هو الآتي : لماذا لم يتولّد هذا الشعور في مرحلة ازدهار الامبراطورية العثمانية وقوّتها ، بل تولّد في طور ضعفها وانهزاماتها أمام أعدائها ، مع أن المناخ الاجتماعي والسياسي والعسكري كان مهيّأ لولادته

والاجابة على هذا السؤال غير ممكنة بمعزل عن مجموعة من الظروف التاريخية التي مرّت بها الامبراطورية العثمانية منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى ما بعد الحرب العالمية الاولى ، حيث بدأت سياسة السلاطين العثمانيين تعتمد على العوامل الخارجية ، وبالتحديد على العلاقات مع الدول الكبرى ، وذلك بغية الوصول إلى نوع من الاستقرار الداخلي يكفي لحل القضايا المحلية دون المساس بهيبة السلطة ، وكان على رأس هذه

القضايا القضية الأرمنية التي بدأت تفرض ثقلها على الباب العالي المنصرف عن سوء أحوال الأرمن تحت نير الولاة وعملائهم . ومهما كان أثر العوامل الداخلية فاعلاً في هذه القضية ، فهو لاينفي أثر العوامل الخارجية ، وتورّط الكثير من الأطراف في التخطيط لابادة الأرمن ، ومنها بصورة خاصة الصهيونية العالمية كما سنرى . لكننا ستذهب الى القول أن تضافر الظروف الداخلية والخارجية هو أول أسباب مجازر الأرمن ، وسنقسم هذه الأسباب المتضافرة الى ثلاثة أقسام :

(1) الأسباب الدولية الخارجية .
(2) الأسباب المحلية الاقليمية .
(3) الأسباب الداخلية .

1 ـ الأسباب الدولية الخارجية :

على الرغم من اتساع مجال هذه الاسباب ، يمكن تلخيصها بظاهرتين موضوعيتين طبعتا الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهاتان الظاهرتان هما :

(آ) نهوض المشاعر القومية في أوروبة ، وقيام مجموعة من الحركات الاستقلالية أدت الى تفجر الامبراطوريتين النمساوية والعثمانية ، وخلقت عدّة قضايا دولية منها القضية الشرقية التي كانت من نتائجها إجبار العثمانيين على التخلي عن المناطق الواقعة في الطرف الغربي للامبراطورية كاليونان ، وبلاد الصرب وغيرها . ولم يكن ذلك ليتم لولا التدخل الخارجي الضاغط لكل من المملكة المتحدة وفرنسة وروسيا .

(ب) تنافس الدول الاستعمارية على منطقة الشرق الأدنى ذات الموقع الاستراتيجي الذي كان موضوع صراعات متكررة بين انكلترة وفرنسة منذ

مطلع القرن التاسع عشر ، ثم تعددت الأطراف الطامعة بدخول روسية القيصرية ، وألمانية وايطالية ميدان التنافس الاستعماري ناتج عن التطور الرأسمالي ، وضرورة البحث عن أسواق خارجية لتصريف البضائع الفائضة . وقد أدى هذا التنافس الى انعكاسات سلبية على الأرمن تمثّلت في مرحلتين متميزتين في تاريخ القضية الأرمنية ، وهما :

أولا ـ مرحلة مابين اتفاقية سان ستيفانو ومؤتمر برلين حيث كان التنافس بين بريطانية الداعمة للسلطان العثماني مقابل بعض الامتيازات ، وروسية القيصرية التي كانت تؤيّد ثورات الشعوب السلافية ضد العثمانيين . ومع توقيع معاهدة سان ستيفانو عام 1878 بين روسية المنتصرة وتركية المهزومة ، تحرّرت معظم البلدان البلقانية ، ولم يحصل الأرمن سوى على تعهد عثماني بادخال الاصلاحات في مناطقهم كما نصت المادة (66) من المعاهدة . ثم أتى مؤتمر برلين بعد عدة أشهر وأجهض هذه المعاهدة لتعود البلقان الى الوصاية العثمانية ، ولتستبدل المادة (16) منها بالمادة (61) التي تركت الأرمن تحت رحمة السلطان عبد الحميد . وبذلك اندحرت آمال الشعوب التابعة للعثمانيين في الاستقلال والتحرّر ، وانقشع تفاؤل الأرمن بالاصلاحات والأمن .

ثانيا ـ مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها ، وبعدها ، وهي المرحلة التي شهدت ذروة التنافس بين الدول الاستعمارية ، ولا سيما بعد أن ظهرت الولايات المتحدة الامريكية بقوّتها الفتية ، وانتعاش المذاهب العنصرية كالطورانية والصهيونية العالمية «وتخلّت الولايات المتحدة الامريكية عن مبدأ (مونرو) القائل بعدم تدخل أوروبة في الشؤون الأمريكية ، وعدم تدخل أمريكة في الشؤون الأوربية ، وأخذت تتدخل في شؤون العالم » . وقد كانت كل دولة من هذه الدول تبحث عن إمكانية عقد اتفاقية سريّة مع العثمانيين ، مقابل عدم التدخل في شؤونها الداخلية . حتى أن اليهود طرحوا مشروع « تبادل مصالح مع السلطان عبد الحميد

صديق هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية الذي قدم له عرضا لمساعدته في القضاء على الأرمن مقابل أن يوافق على شراء اليهود للأراضي في فلسطين التابعة للامبراطورية العثمانية . وقد عمد اليهود منذئذ ان يحققوا أهدافهم في اقامة وطنهم القومي حتى من خلال جمعية الاتحاد والترقي التي ستصل الحكم لاحقا ،

وفي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى ،وبعد انكسار المانية فيها ، انحصرت المنافسة الاستعمارية ببريطانية ، وفرنسة ، والولايات المتحدة الامريكية ،والصهيونية العالمية وايطالية . ومع أن المجلس الاعلى لدول الحلفاء اعترف باستقلال أرمينية في معاهدة سيفر عام 1920 ، عادت في معاهدة لوزان عن قرارها ،لتودي مصالحها الاستعمارية بحق الشعب الأرمني في انشاء دولته . فالمسألة ، في الواقع ، لم تكن لتعني استقلال الشعوب ،بل كانت تعني تقاسم الامبراطورية العثمانية ،وجعل دولها الضعيفة تحت الانتداب الاجنبي كما تبين من خلال اتفاقية سايكس / بيكو ، وكما يوضح بيان السياسة الخارجية البريطانية الذي قدمه آرثر جيمس بلفور رئيس البعثة البريطانية آنذاك ، إلى لسنغ وزير الخارجية الأمريكية ، إذ نقرأ فيه معالم خريطة جديدة لمنطقة الشرق الأدنى في فترة ما بعد الحرب : « مما لا شك فيه أن القضاء على الامبراطورية العثمانية قضاء تاماً هو من أهدافنا التي نريد تحقيقها ، وقد يظل الشعب التركي ـ ونأمل أن يظل مستقلاً أو شبه مستقل في آسية الصغرى ـ فلا شك أن تركية ستفقد الحجاز ، وستفقد كذلك أهم المناطق في وادي الفرات ودجلة . أما أرمينية فإنها إن لم تضمّ إلى الحلفاء ، فمن المرجح أن تبقى ضمن الحكم التركي » . وهذا يعني أن الأرمن سيكونون خاضعين اما للأتراك ، واما للحلفاء ويعني أيضاً استمرار تعليق قضيتهم ، وبعد ستة أشهر من هذا البيان ، ، وفي 2 / 10 / 1917 جاء وعد بلفور القاضي بمنح فلسطين وطناً قومياً لليهود .

وساهمت الصهيونية في إقناع مصطفى كمال بالموافقة على أن توضع تركية تحت الانتداب الأمريكي ، مستخدمة ، من أجل ذلك ، السلاح الاقتصادي عبر تأزيم المديونية الخارجية لتركية كي تبقى دائرة في فلك الرأسمال الغربي ، وتابعة له . وما فعلته حركة تركية الفتاة ـ كما يحلل عالم الاقتصاد التركي تشاغلار كيدر لإقامة (اقتصاد قومي) ، قضى على التجار العرب والأرمن واليونان ، ونمّى طبقة بورجوازية من اليهود والأتراك .

لقد عوّل الأرمن كثيراً على تدويل قضيتهم ، وعلى المشروع الذي وضته الدول الكبرى . لكن الحكومة العثمانية رفضت هذا المشروع واستبدلته بمشروع آخر اتفقت على نقاطه مع روسية ، وفحواه هو « أن يكون عدد المسيحيين في هيئات بعض الولايات يتناسب وعددهم فيها ، لا النصف كما نصّ عليه المشروع السابق » . وشرعت السلطات العثمانية بتنفيذ الاتفاق تحت رقابة مفتشين عامين أحدهما هولندي (وستينك) والثاني نرويجي (هوف) ، لكن اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914 ألقى بالقضية الأرمنية في يد الأتراك الذين انتهزوا فرصة الحرب ، وقاموا بعمليات إبادة الأرمن في جو من السرية والتعتيم .

2 ـ الأسباب المحلية الاقليمية :

قبل أن ندخل في تفصيل هذه الأسباب لا بد من الاشارة إلى ما سببه موقع أرمينية الجغرافي من مشكلات أفقدتها إمكانية التوحد والاستقلال ، وجعلتها هدفاً لأطماع الغزاة منذ القديم حتى عصرنا الحاضر . فلا عجب إذاً أن يكون هذا الموقع المسبب الأول لمجازر الأرمن ، وعنه تفرعت بقية الأسباب ، لكنه ، بصورة عامة ، أفضى إلى نتيجتين مركزيتين قياساً إلى القضية الأرمنية :

« النتيجة الأولى : هي إزالة الدولة الأرمنية المستقلة من خريطة العالم السياسية » .

النتيجة الثانية : هي ظهور المسألة الأرمنية نتيجة لمحاولات إزالة الدولة الأرمنية .

ويضيف اليها أحد الدارسين ثلاثة عوامل تجسد الأهمية السياسية والعسكرية لموقع أرمينية ، سنقتصر في كلامنا على اثنين منها يتعلقان بالأسباب المحلية ، أما العامل الثالث فسنؤخر الحديث عنه ، لندرجه تحت العوامل الداخلية . والعاملان هما :

1 ـ التكوين الجغرافي لأرمينية يجعل منها جسراً بين امبراطوريات متنافسة ومتصارعة ، كالفرس والروم ، والفرس والبيزنطيين ، وروسية القيصرية والامبراطورية العثمانية .

2 ـ وقوع أرمينية على محاور طبيعية حتمية لتقدم شعوب آسيوية غازية كالقبائل الطورانية ، قضى على إمكانية استقلالها ، وكان سبباً في إبادة شعبها وتهجيره .

وكان الطرف الذي يكسب أرمينية لصالحه يحقق مجموعة أغراض في وقت واحد ، كحماية الحدود من الإغارات ، وزيادة قوته العسكرية والاقتصادية باستغلاله لثروات أرمينية الطبيعية والبشرية ، وتسهيل مرور جيوشه إلى الضفة الثانية المعادية . فليس غريباً إذا وجدنا أرمينية مقسّمة بين الأطراف المتنازعة عبر التاريخ . أما في العصر الحديث فصارت موزعة بين ثلاث دول هي : بلاد فارس ، وروسية القيصرية ، والدولة العثمانية . وكان أي صدام بين هذه الدول يترك عواقبه الوخيمة على الشعب الأرمني ، ولا سيما في النزاعات الكثيفة والمستمرة التي قامت بين روسية القيصرية والعثمانيين . مما خلق ذريعة للباب العالي كي يتّهم الأرمن بالخيانة ، وبالتعاون مع العدو الروسي ، والدليل على ذلك ما يكتبه السفير الأمريكي من أقوال أنور باشا بهذا الشأن : « أعطي الأرمن إنذاراً واضحاً لما سيحدث لهم في حال انضمامهم إلى أعدائنا . . قبل ثلاثة أشهر طلبت بطريرك الأرمن

وأخبرته أنهم إذا حاولوا بداية الثورة ، أو مساعدة الروس ، عندئذ لن أتمكن من أن أمنع حدوث الأذى لهم . لم يؤثر إنذاري فيهم ، ومع ذلك ساعدوا الروس ، (...) أظن أن الأرمن يخطئون باعتمادهم على الروس . ان الروس يريدونهم أمواتاً أكثر من أحياء . كما أن خطرهم كبير على الروس . كذلكك هم خطرون بالنسبة لنا . إذا حاولوا إنشاء دولة مستقلة هنا في تركية ، سينشىء اخوانهم هناك في روسية دولة مستقلة أخرى » . فأنور باشا هنا لا يبدي مخاوفه على تركية وحدها ، إنما يحمل هم أعدائه الروس من الخطر الأرمني . ومن الواضح أن انضمام الأرمن إلى أحد العدّوين ، التركي أو الروسي ، سيأتي في المرتبة الثانية بعد هدف إزالة أرمينية ، وتقسيمها . ولا يتأتى ذلك إلا بسياسة الإبادة العنصرية التي انتهجها الطورانيون .

ولإظهار الأرمن بمظهر الخائنين للأتراك ، طلب الاتحاديون من حزب الطاشناق في مؤتمره الثامن ، عشية الحرب العالمية الأول أن يقوم بتنفيذ المطالب الآتية :

1 ـ تشكيل وحدات مسلحة من المتطوعين الأرمن لمحاربة الروس .

2 ـ القيام بعمليات مضادة للروس فيما وراء القوقاز وإضرام نار الثورة بهدف طعن الجيش الروسي في الظهر .

3 ـ توحيد صفوف الأرمن في الخارج والتعاون مع الأتراك .

ولما أبدى حزب الطاشناق أن لا يتمكن من التحدث باسم أرمن القوقاز الذي قد لا يتعاطفون مع الحكومة الاتحادية ذات الموقف السلبي من قضيتهم ، اكتملت حلقة الاتهام . وهذا الجواب « لم يرض مندوبي الاتحاد اللذين رجعا غاضبين يرددان القول : « إن الأرمن سيدفعون الثمن غالياً لقاء رفضهم الانضمام إلى ثوار القوقاز » . وهذا ما حصل فعلاً إذ بدأت الاعتداءات على المناطق الأرمنية الداخلية قبيل اندلاع الحرب العالمية .

ونتيجة للهزيمة التركية على الجبهة القوقازية ، لم تتردد الحكومة الاتحادية في تنفيذ خطة القضاء على الأرمن ، حيث أمر وزير الداخلية طلعت باشا بترحيل الأرمن من مناطق الحرب ، واسكانهم في مناطق أخرى (والمناطق الأخرى لم تكن سوى الصحراء) ، وأسند أمره إلى الزعم بأن الأرمن ليسوا أهلاً للثقة ، وأنهم قد يمدون العدو بالمساعدة والعون ، وهم على وشك القيام بعصيان شامل . هذا على الرغم من أن الأرمن ، بأحزابهم ، وكنائسهم ، وتنظيماتهم ، ومفكريهم أبدوا الاستعداد الكامل للوفاء بالتزاماتهم تجاه الدولة العثمانية والقيام بالواجب في محاربة أعدائها ، وهم جزء منها . لكن ذلك لم ينفعهم ، فما أراد الأتراك جمعه من ذرائع ، جمعوه ، مستغلين نقطتين هامتين لتأريث المجازر :

1 ـ إثارة التعصب الديني بتأليب المسلمين على المسيحيين ، إذ أعطت الحكومة التركية طابعاً دينياً للحرب ، وصادق السلطان رشاد علي طلب « الاتحاد » باعلان الجهاد الاسلامي « المقدس » ضد الدول المسيحية ، باستثناء الألمان والنمساويين باعتبارهم حلفاء تركية ، وقد صدر كتيّب بهذا الشأن أعده الألمان ، ووزعه الأتراك مطبوعاً باللغة العربية وجاء فيه : « على كل مسلم أينما وجد ، وفي أية زاوية كان في العالم أن يقسم قسماً رسمياً بأنه سيقتل ثلاثة ، أو أربعة مسيحيين على الأقل ، وكل من يطيعون هذه الأوامر يتخلصون من هول الدينونة في اليوم الآخر . . » . فالأرمن ، بحسبب هذا التحريض السافر ، مدانون بمسيحيتهم سواء أكانوا أوفياء لتركية أم لم يكونوا ، ولا مفر لهم من مواجهة عواقب العصبية الاسلامية التي عمل الأتراك وحلفاؤهم الألمان على استغلالها أيّما استغلال . وكان لذلك تأثيره البالغ في بعض القبائل التي اضطرت ، تحت ضغط الأتراك ، إلى تنفيذ أعمال القتل والتخريب باسم الاسلاميين ، حتى لقد تراءى على سطح الأحداث أن الأرمن أعداء الأكراد ، والأكراد أعداء الأرمن ، ولا علاقة للأتراك بما ينتج عن نزاعاتهما . والحقيقة هي أن الشعبين الكردي كما الأرمني كانا ضحية العقيدة الطورانية .

وليت الأمر كان قاصراً على هذا فقط ، بل أن الترك أنفسسهم لم يكونوا يحجمون عن تدمير بلاد الكرد والإسراف في قتلهم بأسباب وحجج واهية . وما زالوا دائبين للقضاء عليهم نهائياً . حتى إن أحد قوّاد الترك الكبار وهو خليل باشا كان يعترف مباهياً بما ارتكبه ضد الأمراء الوطنيين الكرد وزعمائهم من المظالم وأعمال القسوة والانتقام » . فأين رابطة الدين الاسلامي من ذلك ، وأين حقيقة المزاعم التركية التي هدفت باستمرار لتجعل العراك مؤرّثاً باستمرار أيضاً بين الأكراد والأرمن ؟ أوَ لم تكن الحرب العالمية الأولى ـ كما نوّهنا في المقدمة ـ حقلاً خصباً ليجني كل طرف في النزاع أكبر قدر من ثمار الامبراطورية العثمانية ، وإن كان ذلك على حساب الشعوب والأقليات التابعة لها ، من عرب ، وأرمن ، وأكراد وغيرهم ؟ !

2 ـ اعتبار التنظيمات السياسية الأرمنية خلايا للتمرد هدفها أن تطيح بحكومة الأتراك ، وتدمر دولتهم . ولهذا السبب لم تتوقف السلطات التركية في العزف على هذا الوتر لتسويغ جرائمها ، زاعمة أن نشاط الأحزاب السياسية الأرمنية هو سبب المجازر والواقع هو أنه بسبب المجازر وليس بسبب آخر كما
يقول باروير يرشيان ـ أرادالشعب الأرمني تنظيم نفسه للدفاع عن حقوقه ، والمطالبة بها .

إن المسألة بعيدة عن أن تكون دينية أو سياسية ، إنما هي تعبير عن نزعة عنصرية سخر الطورانيون الأتراك شتى الوسائل في سبيل تحقيقها . وكان منظّروهم يقولون علانية ، وعلى الدوام : « يجب طرد روسية من القوقاز ، ويجب ضم هذه الأراضي إلى تركية ، ويجب أن يصبح البحر الأسود بحراُتركياً داخلياً » . وكان الأرمن ـ بحكم الموقع الجغرافي لوطنهم الذي تحدثنا عنه ـ عقبة كأداء أمام هذا الطموح ، على حد ما نفهم من قول علي احسان باشا أحد قادة « الاتحاد والترقي » : لولا الأرمن لاحتللنا قوقاز منذ وقت طويل » . لكن أي أرمن يقصد ؟! انهم شعب عريق يتكون من

ثلاثة ملايين إنسان ، تحتاج إزاحتهم من ارمينية إلى أكثر من تجريدهم من السلاح ، وإلى أكثر من إحراقهم ، وتهجيرهم ، وتجويعهم إلى حد الموت . وكان عند الأتراك ما هو أكثر من ذلك فعلاً كما أثبتت وقائع المجازر الأرمنية !! وأغرب الغرائب هو أن حقدهم أعماهم عن أبسط المثل الإنسانية والأخلاقية ، فحاسبوا شعباً بأكمله بناء على زعمهم أن بعض أفراده تعاونوا مع العدو الروسي . وقد لفت السفير الأمريكي نظر وزير الداخلية « الاتحادي » طلعت بك إلى أن هناك فوق كل الاعتبارات العرقية والدينية ما هو حضاري وإنساني ، وإلى أن الجماعة الأرمنية لا يفترض إطلاقاً أن تحمل وزر الأفراد ، وقال له : « لنفترض أن بعض الأرمن خانوكم فعلاً ، فهل هذا سبب لتدمير عرق بكامله ؟ وهل هذا عذر لتعذيب النساء والأطفال الأبرياء وقتلهم ؟ » ، وكان جوابه غريباً من نوعه حيث قال « إننا نلام بأننا لا نفرق بين الأبرياء والمجرمين من الأرمن ، لكن ذلك غير ممكن تماماً ، لأن أولئك الذين هم أبرياء اليوم يمكن أن يكونوا مجرمين غداً » . لكنه عاد وأوضح وجهة نظر حكومية في مقابلة لاحقة مع السفير الأمريكي ، وهي وجهة نظر تلخص المرامي الإقليمية للعقيدة الطورانية ، وكذلك طبيعة الاتهامات التي تذرعوا بها لتسويغ مذابحهم ، يقول « طلعت باشا » مخاطباً مورغنتاو : « طلبت منك أن تأتي اليوم لأشرح موقفنا من المسألة الأرمنية برمّتها . نحن نبني اعتراضاتنا ضد الأرمن على ثلاث نقاط أساسية واضحة . أولاً انهم أثروا على حساب الأتراك ، وثانياً قرر الأرمن أن يهيمنوا علينا ، وذلك بتأسيس دولة منفصلة ، وثالثاً ساعدوا أعداءنا علينا . ساعدوا الروس في القوقاز وأخفقنا هناك بسبب تصرفاتهم تلك . لذلك جئنا إلى القرار النهائي إنه يجب علينا أن نضعفهم قبل نهاية هذه الحرب » .

إنه لمن الواضح أن الاعتراضات التي يبني عليها الطورانيون موقفهم الدموي من الشعب الأرمني لا تثبت أمام التحليل المنطقي ، بالإضافة إلى

أنها تجعل من التجاء الأرمن إلى الروس أو إلى الدول الأوروبية الأخرى تصرفاً لا أسباب له ، متناسياً ، أو مسقطاً من اعتباره أن يعود ، قبل كل شيء ، إلى اضطهاد الأتراك لهم ، وإلى أعمالهم الابتزازية ، وسوء معاملتهم ، التي كان يمكن حلها ـ كما أشار مورغنتاور ـ بخلق نظام مرتب للدولة ، أساسه المساواة والعدل للمواطنين جميعهم . أما ما قام به الاتحاديون فمناف لما أطلقوه من شعارات قبل ثورتهم بجعل تركية جزءاً من العالم الحديث والمتحضر .

3 ـ الأسباب الداخلية :

نظراً لطبيعة الظروف التاريخية التي عاشتها الأمة الأرمنية قديماً وحديثاً ، لا نستبعد أن تكون الأسباب الداخلية للمجازر الكبرى ، من صنع الأسباب الخارجية والإقليمية . فهذه الأسباب هي التي حالت دون وحدة الأرمن وتماسكهم أمام موجات الغزو والاضطهاد . يضاف إلى ذلك أن الطبيعة الجبلية للمدن الأرمنية ، والاقتصاد الزراعي المتخلف الناتج عن سكونية النظام الاقطاعي ، وتقليديته ، قد ولّدا نظاماً اجتماعياً متخلفاً أيضاً ، ومتناحراً باستمرار ، جعل الأرمن يعيشون حالاً من التمزق والصراعات التي يحصرها بعض الدارسين ضمن ثلاث دوائر :

1 ـ دائرة التمزق الداخلي العائد إلى تدخل الدول الأجنبية في تعيين الملوك الأرمن ، أو ابعادهم عن العرش بالعزل ، أو بالقتل إذا لزم الأمر وكان التنافس بين أفراد الأسرة المالكة الواحدة على العرش يزيد من حدة هذا التمزق ، ويورث لبلاد الأرمن تضعضعاً اقتصادياً ، وتقهقراً على الصعيدين العسكري والسياسي .

2 ـ دائرة الصراعات المحلية التي أنتجها النظام الاقطاعي المنقسم على نفسه إلى درجة غدت الدولة معها مفتّتة ضعيفة : ذلك أن الأمراء الاقطاعيين انتهجوا سبلاً متناقضة في علاقاتهم مع الدول المحيطة ، وكان

يحدث أن يتحالف أمير مع دولة مثل دولة الفرس ، ويتحالف آمير آخر أو عدة أمراء مع بيزنطة ، ليصير الشعب الأرمني ضحية نزعتين تؤديان إلى نسيان « وحدة الهدف » وإضعاف قوة بلادهم . وقد استمر مثل هذا الانقسام في عهد العثمانيين وأعدائهم التقليديين القياصرة الروس ، وشكّل رحماً موائمة لخلافات الأرمن الجانبية التي سمحت للتدخلات الخارجية بالتغلغل والفعل السلبي في حياتهم ، وحياة وطنهم .

3 ـ دائرة التنافس الحزبي والديني العائد بدوره إلى العلاقات مع الدول الكبرى المحيطة بأرمينية ، وفي مختلف المراحل التاريخية . فبعض الأحزاب والفئات الدينية كانت تؤيد الدولة الفارسية ، أو البيزنطية ، أو العربية ، أو الروسية ضد هذه الدولة أو تلك ، وفي الوقت الذي كانت فيه الدول الأخرى ـ كبلاد فارس ـ تسعى إلى إعادة الوطنية إلى أرمينية ، كانت بيزنطة تهدف إلى جعل أرمينية من نفس مذهبها الديني . الأمر الذي أضاع فرصاً كبيرة للتماسك والتوحد أمام الأخطار المهددة لأمن أرمينية ووحدتها . زد على ذلك أن الأسس العقائدية للأحزاب السياسية الأرمنية المتأثرة بالأحزاب السياسية الخارجية ، ولا سيما الماركسية منها ، قد طرحت موضوعات خلافية عديدة كان منها تعارض المفكرين القومي والأممي ، وما يرافقهما من صفات ثورية أو غير ثورية كاليمينية والشوفينية والتعصب والتطرف وغير ذلك .

وعلى أية حال ، ما ذكرناه عن العوامل الداخلية لا يحتسب إلا ثانوياً : لأن ما تعرضى له الأرمن يفوق التصور ، كما أن الوحدة الداخلية لم تجد ما يلائم حياتها التي وجدت نفسها محاربة باستمرار من هذا العدو ، أو من ذاك . وهذا ما منح فكرة « تضافر العوامل والظروف » الشرعية ، وبعضاً من الصحّة والموضوعية .

مواقف من المجازر

أولاً ـ موقف الدول الكبرى :

نفذ الأتراك مجازر الأرمن ـ كما رأينا ـ في جو الصراع الاستعماري على امبراطوريتهم ، وضمن ظروف الحرب العالمية الأولى التي سمحت لهم إلى حد ما بفرض حصار محكم على المناطق الأرمنية حيث كانت الحدود الدنيا لحقيقة ما يحصل صعبة المنال . لذلك ضعف صدى المذابح أمام صدى الحرب . لكن هذا لا يعني أن شيئاً عما كان يفعله الأتراك بالأرمن لم يكن يصل إلى الدول الكبرى . فسفراء هذه الدول في استانبول وقناصلها في الولايات العثمانية ، كانوا يزودون حكوماتهم بتقارير عن انتهاك الأتراك لبيوت الأرمن ، ولأعراضهم ، وعن المذابح وعمليات التهجير . وبناء على هذه التقارير وجهت حكومات الحلفاء بعض التحذيرات للباب العالي ، كالإنذار الموجه بتاريخ 24 / 5 / 1915 معتبراً أن أعضاء الحكومة وعملاءها في تنفيذ المذابحح ، مسؤولون شخصياً عنها ، وندّدت هذه الحكومات بالمجازر رسمياً وشعبياً . وكانت الحكومة الاتحادية تتجاهل القضية مصرة على أنها لا تفعل إلا ما تقتضيه مصلحة الأرمن في فترة عصيبة

ناتجة أساساً عن اندلاع الحرب ، ثم أن الولايات الأرمنية ولايات عثمانية يحق للحكومة أن تتصرف بها لاعتبارات أمنية تمسّ مصلحة الامبراطورية كلها .

بيد أن مواقف الدول الكبرى لم تتجاوز مجرد التنديد ، والتحذير من مغبة ما يمكن أن ينتج عن ذبح طائفة كاملة من الرعايا العثمانيين . والحق أن ما تحكم بتلك الموقف كان شيئاً آخر تماماً قد يعني قضية الأرمن ، ولكنه لا يمسها بأية بادرة حل . فبريطانية مثلاً وبدافع تخوّفها من الروس ، حرضت النمسا ضد روسية ، ووعدتها بإمكانية أن تحتل منطقتي البوسنة والهرسك بعد إخلاء الجيوش الروسية عنها وعن البلقان . ومن جهة أخرى ، كان ديزرائيلي رئيس الوزراء البريطاني قد وقع اتفاقاً سرياً مع السلطان عبد الحميد الثاني ، وتعهد بحمايته ضد الروس ، وضد مطالب الأرمن ، بشرط أن يتنازل السلطان لبريطانية عن جزيرة قبرص . واستمرت بريطانية تركز اهتمامها على التحركات الروسية ، والألمانية ، وتحاول إشعار الأتراك بوفائها لكل الالتزامات المترتبة عليها ، وبوقوفها إلى جانبهم .

وسعي ألمانيا القيصرية للوصول إلى بغداد والموصل لتمديد خط حديد برلين ـ بغداد عبر الأراضي التركية ، دفعها لاستمالة السلطان والوقوف معه ضد روسية ، وضد المطالب الأرمنية بالاصلاحات . وخارج إطار الامتيازات لم تكن قضية الأرمن لتعني الحكومة الألمانية ، مع أنها كانت على علم تام بأحداث المجازر . فالسفير الألماني البارون فانغنهايم كتب إلى حكومته بتاريخ 17 / 6 / 1915 ، يقول : « إن طلعت بك أعلن بصراحة أن الباب العالي وجد في ظروف الحرب فرصة ملائمة للتخلص من أعداء البلاد في الداخل دون أن تزعجه مداخلات الدبلوماسيين » . وبتاريخ 10 / 7 / 1916 أبرق الكونت الألماني ميترنيخ يخبر « أن الأتراك رفضوا السماح للدبلوماسيين الألمان ، وكذلك للسفير الأمريكي ، ولممثل قداسة البابا ، بالتدخل في أعمال الإبادة للعنصر الأرمني . وربما كانت أطماع

ألمانيا في الامبراطورية العثمانية وراء تحالفها مع الآستانة ! فبرلين كانت تعرف جيداً أهمية الدور الحاذق الذي كان يلعبه السلطان ، ومدى تأثيره في العالم الإسلامي لتأليب المسلمين ، عند اللزوم ، على أعدائها في أوروبة المسيحية . وحصولها على المزيد من المكاسب الاقتصادية والسياسية والعسكرية من السلطات العثمانية هو وحده الذي سيخلق لها مجالاً حيوياً من جانب ، وسيوفر الامكانيات التي يمكن استخدامها لخوض حرب مقبلة تحقق لها الامتداد والتوسع من جانب آخر ، ولعل هذا ما يشرح لنا إعلان القيصر الألماني بـ « بأنه ليس مستعداً لاستبدال عظام جندي بروسي واحد بكل المسألة الشرقية » . وعلى هذا المنوال سارت السياسة الألمانية حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى . إذ ليس من الجور تحميل ألمانية مسؤولية مشاركة الأتراك في جرائمهم ، ليس لأنها كانت حليفتهم في الحرب وحسب ، بل لأن جنودها كانوا يدربون الجيش التركي ، ويقودون عملياته الحربية ، « وكانت الجرائم ضد الأرمن تقترف بحضورهم ، وأمام أعينهم » . فهل نقول ، بالاستناد إلى ما أثبتناه : ان ألمانية وقفت موقفاً حيادياً فقط من مجازر الأرمن ، أم لموقفها جانباً آخر يجدر بنا أن ندقق فيه النظر ، لتكتمل أمامنا صورة الواقع الذي كان الأتراك يحاولون فرضه في أرمينية . وكيما نتجنب أي جور أو تعسّف في تقويمنا للسياسة الألمانية بهذا الشأن ، سنعرض ما أفاد به السفير الأمريكي مورغنتاو في مذكراته ، وسنقتطف منها أهم ما يتعلق بقضية المذابح الأرمنية خلال عام 1915 .

يذهب مورغنتاو بتحليله المتعدد الجوانب لمواقف ألمانيا إلى أن الألمان ضالعون في جرائم الأرمن لأنهم فتحوا أعين الأتراك على مفاهيم خاصة بالقتل ، والإبادة ، لم تكن لتخطر ببالهم . فالأتراك الذين فهموا « القتل » بمعناه البدائي في ماضيهم مع الأرمن وغيرهم من رعايا العثمانيين ، صارت عندهم عقلية جديدة في أثناء المجازر الكبرى ، استمدوها من تعاليم البروسيين ، وهي التهجير بالقوة . لقد اخترع الأتراك طرقاً شتى لتعذيب

رعاياهم المسيحيين وغير المسيحيين ، ولكن الطريقة البروسية كانت مجهولة لديهم . ويذكر مورغنتاو أن الأدميرال أوزيدوم أحد أكبر البحريين الألمان في تركية أخبره أن بلاده هي التي اقترحت فكرة التهجير على حكومة الاتحاديين . ويضيف مستنتجاً أن فكرة التهجير متوائمة مع آداب « ألمانية العظمى » و « هؤلاء المتحمسون بناء عالم ألماني متميز خططوا عمداً ، كجزء من برنامجهم ، لطرد الفرنسيين من بعض أقسام فرنسا ، والبلجيكيين من بلجيكا ، والبولونيين من بولونيا ، والشعوب السلافية من روسية ، وتهجير شعوب أخرى سكنت أوطانها لآلاف السنين ، وتوطين الأراضي الخالية من سكانها بألمان أشداء مخلصين » . أليست هذه هي الخطة « الاتحادية » التي تم تنفيذها في بلاد اليونان ، وفي أرمينية ، ولاحقاً في كيليكية ، ولواء اسكندرون ؟

على أن ما يهمنا من هذا المفهوم الجديد في إفناء شعب ما من الشعوي هو كيفية انعكاسه على الأرمن ، ليس فقط من خلال « الحكومة الاتحادية » وهي أداة تنفيذه ، بل من خلال موقف ألمانيا بصفتها دولة عظمى كانت ذات شأن في صياغة قواعد العلاقات الدولية للنظام العالمي الوليد في بدايات القرن العشرين . ومورغنتاو لم يهمل ذلك قطعاً ، لأنه وسع إطار تحليلاته كاشفاً عن الأصرة التي تربط السياسة الألمانية بعيدة المدى ، بكيفية جني المكاسب الجغرافية ، والاقتصادية ، والبشرية ، مع ضرورة ضرب العدو الروسي وتقليص نفوذه في الامبراطورية العثمانية إلى أقصى الحدود . ومن أجل أن يدعم مورغنتاو آراءه ، يثبت في مذكراته ما كانت الجريدة الباريسيةLE TEMPSقد نشرته على لسان أحد الكتاب الألمان وهو بول روورباخ ، ونصّه هو الآتي : « جرى في برلين قبل مدة مؤتمر ، أوصى بأنه يجب تفريغ أرمينية من الأرمن ، وذلك ببعثرتهم إلى بلاد ما بين النهرين ، وعلى الأتراك أن يملأوا هذه المناطق حتى تتحرر أرمينية بالكامل من النفوذ الروسي ، وتزود بلاد ما بين النهرين بمزارعين هي بأمس الحاجة اليهم » .

ويرى مورغنتاو أن الغاية واضحة من وصية المؤتمر ، وهي جزء من الحلم الألماني « القديم ـ الجديد » لتأسيس امبراطورية فتية وقوية تمتد من هامبورغ حتى الخليج العربي . « ولن ينجح مشروع كهذا أبداً إلا عن طريق سكان نامين ، وصناعيين لتغذيته » . والأتراك ليسوا كذلك ، فهم كسالى وبليدون . أما الأرمن فقادرون على تغذية الدولة الألمانية بخبراتهم ، وإذا ما هجروا من ديارهم إلى ما بين النهرين ، فسيحولون الصحراء إلى امتداد هائل للحضارة الجرمانية .

وانطلاقاً من هذه الأفكار راح دعاة البان ـ جرمانيزم يسوّغون جرائم الأتراك بأنها دفاع عن النفس ، وأن « الخطر بالنسبة لتركية من القضية الأرمنية هو خوفها من الدمار الشامل » ، علاوة على أن « الأرمن خانوا الدولة العثمانية وقاموا بعصيان مسلح ضدها . ولذلك لم يكن في يد ألمانية أي حل لهذه القضية الداخلية » . ويختم سفير ألمانيا في تركية حديثه مع مورغنتاو قائلاً : « سأساعد الصهاينة لكنني لن أفعل شيئاً من أجل الأرمن أبداً » . وكان الأتراك متأكدين من ثبات موقف حلفائهم الألمان ، فراحوا ينفذون الفن الجديد الذي تعلموه منهم ببراعة وإحكام .

والولايات المتحدة الأمريكية كانت ، هي الأخرى ، تبحث عن مصالحها في ميدان الصراع مع الدول الأوروبية ، ومع بريطانية خاصة . وقد قوّم الكونغرس الأمريكي قضية أرمينية على ضوء المكاسب التي تعود بها على أمريكة . وها هو الشيخ الجمهوري فرانك بوسوورث برانديجي يصرح بوضوح : « أن بريطانية أخذت حصة الأسد من غنيمة الحرب ، وبالمقابل . . . ما هي حصة الولايات المتحدة الأمريكية من تلك الغنيمة ؟ دعوة مهذبة لتمويل دويلة الجمهورية في أرمينية وحمايتها عسكرياً . . . انني أعترض على البحث في أرمينية طالما اننا لم نمتلكها بعد . . . » وما المكاسب التي يمكن أن تقدمها أرمينية بعد أن حل بها الخراب والدمار ، وماذا تركت

الحرب فيها أصلاً ؟ إذاً لا مكاسب إلا بامتلاك الجمهورية الأرمنية ، وامتلاكها يختلف عن حل قضية شعبها المغدور ، كما أن حلها لا يكون فقط بالتمويل والحماية العسكرية ، بل بضرورة معاقبة المجرمين العنصريين على ما اقترفوه من ذبح وتشريد لشعب كامل .

ولا يخرج الشيخ الجمهوري الثاني جون مكورميك عن مقولة برانديجي عندما يلفت النظر إلى أن الدول الأوروبية المسيحية التي كانت تدافع عن الحكم العثماني ، تقاسمت فيما بينها تلك المناطق من الامبراطورية التي تحتوي على الموارد الاقتصادية ، ويضيف واضعاً يده على موطن الجرح : « والآن يعرضون علينا المنطقة (أرمينية) التي لا يمكن حمايتها عسكرياً . . . وحيث الموارد الاقتصادية تساوي صفراً » .

أمّا فرنسة فقد قطعت على نفسها عهداً بمساعدة الأرمن ، وكانوا كلما استنجدوا بها قدمت لهم الوعود تلو الوعود التي ذهبت هباء لقاء بعض الامتيازات الاقتصادية والثقافية في تركية . ولم تكتف فرنسة بالتخلي عن وعودها للأرمن ، بل طعنتهم في الظهر كذلك ، كما يقول أحد الدارسين الأرمن ، عندما انسحبت من كيليكية ، وسلّمت الأسلحة الموجودة في جنوب آسية الصغرى للأتراك . وقد شملت الطعنة الفرنسية اليونانيين ، والعرب أيضاً .

لكن إذا كانت مواقف الدول الكبرى من مجازر الأرمن قد خضعت للمصالح الاستعمارية التي تكون دائماً على حساب الأمم الصغيرة أو الضعيفة ، فلا يغربنّ عن البال ـ مع ذلك ـ أنه ليس ضرورياً أن تتطابق مواقف حكومات هذه الدول ، مع الرأي العام لشعوبها . حتى أن ما ترسمه السياسة قد يكون في واد ، وما يعبر عنه المفكرون ، والكتاب ، ورجال الدين ، ، في واد آخر . ولعله غير خاف على أحد أمر عدم تعويل رجال السياسة الاستعمارية ، وهم يرسمون مخططاتهم ـ على الأبعاد الوجدانية ،

والإنسانية لما قد ينتج عن سياستهم . وقد عبر عن ذلك صاحب كتاب « أوروبة الوسطى » فريدريخ ناومان ، وهو من دعاة أفكار البان. جيرمانيزم ، بقوله : انّ تدمير تركيا للأرمن قد يكون عملاً بربرياً ، ومخجلاً ، ولكن ـ « وعلى الرغم من شعور الاستياء والغضب الذي يشعر به المسيحيون الألمان ضد هذه الحقائق المخجلة ، لا يمكنهم أن يفعلوا أي شيء غير مساعدتهم بشفاء جراحهم قدر الإمكان (. . .) ان سياستنا الشرقية مقرّرة منذ زمن بعيد ، ونحن ننتمي إلى الجماعات الذين يحمون تركيا (. . .) ويجب علينا أن نعلم أن أعمال البرّ هذه يجب ألا تأخذ طابعاً سياسياً يحيط سياستنا الألمانية » . تلكم هي الحقيقة في عالم السياسة الذي لا يعبأ بالرحمة ، والشفقة أمام الغايات القومية ، الأكبر ! إذاً ما قيمة الرأي العام في هذه الحال ؟

نحن نرى أن الرأي العام ـ وإن كان لا يغير الخط السياسي لدولة كبرى ـ يحتفظ بقدرته على صياغة أعراف إنسانية لها وزنها الثقيل في الميدان الدولي ، ويستطيع ، بالتالي ، أن يعدل في سياسة تلك الدولة أو الدول على المدى البعيد . ربما كان فيما نسوقه من أفكار شيء من التبسيط للعلاقة بين الرأي العام المنتمي إلى المضمار الفكري والأخلاقي ، والدين للمجتمع ، وعلم السياسة الذي قد يتناقض معه كما رأينا . لكن اصرارنا على إمكانية وجود علاقة تأثير وتأثر بينهما يستند إلى اعتبارين نقدّر أنهما هامان :

1 ـ الاعتبار الأول ذو طابع تاريخي يؤكد أهمية الرأي العام في أعراف المنظمات الدولية التي طورت قوانينها ، وعدلت من سياسة الكثير من البلدان بناء على هذا التطوير . وعلى الرغم من الثغرات الكبيرة أحياناً ، في تنفيذ قوانين الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن ، فنحن نشهد من خلالها جوانب إيجابية قد تسهم في المستقبل بفعالية أكثر جدوى ، لحل قضايا العالم المعلّقة ، ومنها قضية فلسطين .

2 ـ والاعتبار الثاني يتعلّق بطبيعة الشعب الأرمني ، ومنهجه النضالي في معركة مطالبته بحقوقه . فهو لا يكتفي بمخاطبة الحكومات في المجتمع الدولي ، إنما يتوجه إلى الإنسانية بطلب حقّ ، كي تصغي إلى معاناته ، وتعمل على مساعدته في تعويض بعض ما خسره من بشر وأرض . ومهما كان الأمل ضعيفاً بالرأي العام العالمي ، فيجب الاستمرار في التوجه اليه ، واطلاعه على الحقيقة . وهذه سمة نضالية للشعوب العريقة بإنسانيتها ، وحضارتها ، وليس بقوتها وحسب .

استناداً إلى هذين الاعتبارين نحكم قائلين : ليس ما يقوله بسمارك في تحديد السياسة الخارجية لألمانيا ، بأهم مما يقوله كاتب ألماني في الجرائم البربرية للأتراك . بل أن في عرض الرأيين قيمة تاريخية ، وخطوة واسعة باتجاه معرفة الحقيقة ، والدفاع عنها كما نود أن نفعل في هذا البحث الموجز .

لقد عبر المستشرقان الألمانيان ماركوارت ، وجوهانس ليبسيوس اللذان كانا يعرفان أرمنية جيداً ، عن استيائهما من موقف حكومتهما من قضية الأرمن ، لأن ما كان لديهما من المعلومات ، وما شاهداه من مآسي الأبرياء في المناطق الأرمنية لم يسمح لها بالسكوت . وممن انتقدوا ألمانية وشجبوا تشجيعها للأتراك أربعة أساتذة من مدرسة حلب الألمانية ، وذلك من خلال رسالة وجهوها إلى وزارة الخارجية في برلين وشددوا فيها على « التناقض بين مهمتهم الحضارية ، وموقف حكومتهم السلبي تجاه الأحداث المأساوية التي تنزل بالأرمن » . كما أبدوا دهشتهم من كون حكومتهم لم تتكلف عناء دعوة الحكومة الاتحادية إلى رشدها ، ومعالجة القضية بأسلوب متحضر .

ولعل الصيحة الغاضبة للألماني هاري ستوبرمر ، تجلو لنا حقيقة التباين بين الموقف السياسي ، والموقفين الفكري والإنساني من مجازر الأرمن ، فهو يصرح قائلاً : « إن هذا العار الذي سيسجله التاريخ العالمي

هو أن إبادة شعب بكامله ذي حضارة راقية يعد أكثر من مليون ، ونصف المليون نسمة ، إبادة وحشية أعد لها بعناية تجري في عهد تتمتع فيه ألمانية بأكبر نفوذ في تركيا » .

وفي فرنسة ارتفعت أصوات مستنكرة لما حل بالأرمن من مآس على أيدي الطغاة الأتراك ، منه صوت الشاعر آناتول فرانس ، والمفكر ، ورجل السياسة جان جوريس . غير أن الحكومة الفرنسية لم تقدم أي حل ملموس ، ونسيت وعودها بمساعدة الشعب الأرمني في مطالبته بحقوقه والدفاع عنها .

على أية حال ، كانت مواقف الحلفاء واحدة من قضية الأرمن ، ففي أثناء الحرب قدموا صورة وردية للمساعدة في تأمين استقلال أرمينية كانت دافعاً قوياً لانضمام آلاف الشبان الأرمن إلى الجيوش الفرنسية ، والانكليزية ، والمحاربة في صفوفها . وما حصدوا سوى خيبة الأمل ، وما كانت حال العرب بمختلفة عن حالهم ، فبدل الانفصال عن الدولة العثمانية وتحقيق التحرر والاستقلال ، تجزأ الوطن العربي إلى دويلات وجدت نفسها خاضعة لانتداب الفرنسيين والانكليز . وإذا كان الأرمن قد عاشوا بعض الاستقرار نتيجة الاعتراف العالمي باستقلال دولتهم في معاهدة سيفر ، فالدول الكبرى لم تدم عليهم ذلك ، فسرعان ما انقلبت عليهم في مؤتمر لوزان كما ذكرنا ، وعلقت قضيتهم إلى اليوم . فتركية لا تزال تحتل أرمينيا ، ولا تزال تنكر مجازر الأرمن ، وتحول ، بشتى الوسائل ، دون ذكرها في لجنة حقوق الإنسان الدولية .

ثانياً ـ الموقف الإقليمي :

لو أخذنا بعين التقدير جانب الحياد الذي التزمته ايران في الحرب العالمية الأولى ، لما عانى بحثنا من أي نقص فيما لو كان تقويمنا للموقف الاقليمي من مجازر الأرمن ، مقتصراً على روسية القيصرية وطريقة معالجتها

للقضية ليس باعتبارها من الدول المحيطة بأرمينية ، بل لأنها طرف في هذه القضية أيضاً . فمنذ عام 1828 حيث تم ضم أرمينية الشرقية إلى روسية ، لم يعد لايران دور يذكر في قضية الأرمن . علاوة على أن روسية القيصرية عدت نفسها وريثة البيزنطيين ، وحامية المسيحيين الأرثوذكس في الشرق . ووجد الأرمن ، من جانبهم في عملية الضم هذه تحريراً لهم من جور الشاه الايراني ، والسلطان العثماني . ومع ذلك فقد اصطدمت آمالهم بالاستبداد القيصري الجديد الذي وضع لكنيستهم نظاماً يحدّ من نفوذها في عام 1836 ، واستصدر القيصر قانوناً تتم بموجبه معاملة الأرمن معاملة أقلية دينية لا معاملة شعب وأمة ذات تراث ، ويفرض الرقابة على رجال الدين ، وزعماء الأرمن في اقليم ما وراء القوقاز . وحتى اسم أرمينية لم يرق للسلطات القيصرية ، فاستبدلته باسم « محافظة يريفان » .

وفي عهد القيصر اسكندر الثالث ، والقيصر نقولا الثاني ، تصاعدت مغبة اضطهاد الأرمن ، تارة بإقفال مدارسهم ، ونفي مفكريهم ، وتارة أخرى بالتدخل في شؤون الكنيسة الوطنية الأرمنية « إلى أن أصدر المرسوم المؤرخ في 25 / 1 / 1903 القاضي بمصادرة أملاكها . فاضطر الأرمن للرد على هذه الاجراءات التعسفية ، بالعصيان المدني ، وبالمظاهرات الشعبية « وقررت الأحزاب الثورية الأرمنية أن توجه نشاطها أيضاً ضد القيصرية الروسية فوق السلطنة العثمانية التي كانت تركز عليها من قبل .

ومع أن روسية هي من أكثر الدول الكبرى التي مالت إلى دعم مطالب الأرمن بأن تقوم السلطنة العثمانية بالإصلاحات في مناطقهم ، فقد كان لاستناد الأرمن عليها ، ولآمالهم فيها تأثير بالغ السوء ، إذ دفعوا ضريبته الكثير من الضحايا ، لا لشيء إلا لأن الأتراك وجدوا في ذلك ذريعة لاتهامهم بالخيانة والتخاذل . وبشكل خاص عندما كان الجيش الروسي ، في أثناء الحروب التي خاضها ضد العثمانيين ، يصل إلى أرمينية ، وينسحب

منها بناء على استراتيجياته ، وليس بناء على وعوده للأرمن بالحماية والأمن . فهؤلاء كانوا يعقدون الآمال ، وترتفع معنوياتهم ، ويعتقدون باقتراب الخلاص من الظلم والقتل ، وفجأة يلفون أنفسهم تحت رحمة الأتراك الذين يكيلون لهم صاع التعسف صاعين بعد أن يترك لهم الروس الساحة خالية ، على غرار ما حصل في أواخر أيار عام 1915 ، عندما وصل الجيش الروسي إلى (خلاط) ، واقترب من بتليس ، فشعر الأرمن في (دارون) ، أنهم لا شك ناجون من المجازر ، وعلى حين غرة ، ودون سابق إنذار ، وحتى من دون أي مشروع مسوغ عسكري ، انسحب الروس من المواقع التي احتلوها ، وأجبر الأرمن ، الذين شعروا بما يشبه « شعور التحرر والاستقلال » على مواجهة واحد من مصيرين : فإما البقاء في مواطنهم ليموتوا في المقصلة التركية ، وإما الانسحاب مع الجيش الروسي . وكان أن اختاروا المصير الثاني .

وعلى ما يبدو من تحليل المواقف الدولية من هذه القضية ، كانت روسية القيصرية تتعرض لضغوط الدولتين الاستعماريتين ،فرنسة وانكلترا ، اللتين تعهدتا للدولة العثمانية بالدفاع عنها إذا ما قدمت لهما بعض التنازلات . ثمّ أن بريطانية ، كما ذكرنا سابقاً ، ومنذ مطلع القرن العشرين ، كانت تتخوف من طموحات القياصرة الروس في التوسع والاستيلاء على ما وراء القوقاز ، ومناطق البحر الأسود . لذلك سارعت إلى نجدة السلطان عبد الحميد عندما غزت روسية المناطق الأرمنية الغربية التي كانت واقعة تحت سيطرة الدولة العثمانية عام 1878 ، وأنزلت سفنها في الدردنيل « فكان أن توقف الروس ، وتراجعوا باستياء من الجبهتين ، البلقانية والقوقازية ، مع أنه سمح لهم بالاحتفاظ بثلاثة أقاليم أرمنية هي قارص ، وأردهان ، وباطوم » .

ولم تكن أطماع الفرنسيين بأقل من أطماع الانكليز . مما أجبر روسية

على تغيير سياستها ، وفتح أبواب المفاوضات مع حليفتيها في الحرب العالمية الأولى لتسوية مسألة الأراضي التي سيحتلها الحلفاء من الامبراطورية العثمانية ، وكيفية توزيعها فيما بينهم . وعلى أثر ذلك تقاسمت روسية مع فرنسا الأقاليم الأرمنية والكردية ، وأطلقت يد انكلترا في مناطق أخرى كقبرص ، ومصر ، وبعض البلدان العربية الأخرى التي رسمت حدودها في معاهدة سايكس / بيكو المتفرعة عن الاتفاقية السرية بين الحلفاء الثلاثة : فرنسة ، وانكلترا ، وروسية القيصرية .

بعد قيام ثورة أكتوبر الاشتراكية عام 1917 ، انسحبت روسية من الحرب ، وفي التاسع والعشرين من كانون الأول من العام نفسه أصدرت مرسوماً حول حق شعب أرمينية الغربية في تقرير مصيره ، والمطالبة باستقلاله عن الدولة العثمانية ، ورأت السلطات الثورية الروسية أنه لا بد من عودة المنفيين واللاجئين الأرمن إلى مواطنهم دون عوائق . وهكذا أخذت أرمينية الغربية تستعيد حركتها ، وسكانها ، وتستأنف الحياة والتعمير . لكنّ استيلاء البلشفيين على الحكم المركزي جعل الجنود الروس يتركون ساحات القتال متوجهين إلى الداخل وصراعاته ، وظلت الوحدات الأرمنية وحيدة في المعركة ، غير أنها صمدت إلى آخر لحظة . وجاءت معاهدة بريست ـ ليتوفسك التي فرضتها الدول الكبرى على روسية السوفيتية عام 1918 ، بمادتها الرابعة التي نصت على أن تنسحب روسية من مقاطعات الأناضول الشرقية ، وإعادتها إلى تركية ، وكذلك من مناطق أردهان ، وقارص ، وباطوم ، وهنا استأنفت تركية اعتداءاتها على الأرمن ، الذين وحدوا صفوفهم ، ودحروا الأتراك وأجبروهم على الاعتراف باستقلال أرمينية في الرابع من حزيران عام 1918 . وعقب توقيع هدنة « مودرس » بين الحلفاء وتركيا في تشرين الأول عام 1918 ، ولدت أرمينية الموحدة ، لكن الحلفاء لم يعترفوا باستقلالها إلا في معاهدة سيفر في العاشر من آب عام 1920 .

وما إن وصل مصطفى كمال إلى الحكم ، متزعماً الحركة التركية الجديدة ، حتى رفض معاهدة سيفر ، وما كان من السوفييت إلا أن عقدوا مؤتمر شعوب الشرق الذي برزت فيه النزعة الطورانية ، وكادت تطغيعليه . وغدت أرمينية من جديد ، على حافة الخطر . ولم يتأخر الأتراك كثيراً في مداهمتهم لأمن أرمينية المستقلة ، فسرعان ما قامت أقليات تركية تترية ، بتحريض من استانبول ، بإشاعة الفوضى ، وإرباك السلطة في أرمينية . فسارعت الحكومة الأرمنية للتفاوض مع موسكو وضمان مساعدتها اللازمة للقضاء على الشعب . وأرسل الروس ، بناء على ذلك ، وفداً إلى يريفان ، ، لم يبادر بالمفاوضات السياسية إلا بعد فوات الآوان ، لأن الأتراك والتتار زحفوا على أراضي أرمينية ، وقامت معارك عنيفة أسفرت عن هزيمة الأرمن الذين اضطروا لتوقيع اتفاقية الكسندربول مع تركية ، وتنازلوا لها عن قارس ، وأردهان ، والأشكيرد ، « وفي اليوم نفسه جرى التوقيع أخيراً على معاهدة أرمينية روسية ، وشكلت حكومة انتقالية من الطاشناق والشيوعيين » ، وأضحت أرمينية بعدما تقلصت رقعتها إلى (30,000) كم² جمهورية سوفييتية ، وهي مساحة لا تعادل خمس مساحة أرمينية التي أقرتها معاهدة سيفر .

وهكذا بقيت القضية الأرمنية دون حل عادل ، وحنث الحلفاء بوعودهم ، وفي مؤتمر لوزان لم يتذكرها أحد . ولا تزال الحكومات التركية المتتابعة تنكر مذابح الأرمن ، وتقسر قوانين محكمة العدل الدولية لتدعيم إنكارها . غير أن نضال الأرمن مستمر ، ولن يتوقف ما دام حقهم مسلوباً .

ثالثاً ـ موقف العرب :

تمهيد :

من الضروري أن نشير إلى أن موقف العرب من مجازر الأرمن لم يكن وليد الزمن الذي حصلت فيه هذه المجازر ، ولا ترجمة عارضة أو آنية لردّة فعل إنسانية ضد الظلم ، والتعسف والبربرية فقط . بل كان موقفاً له أصل تاريخي كان ، ولا يزال يربط الشعبين العربي والأرمني . ويندر أن نجد علاقات بهذا القدم والغنى ، فعلى مرّ التاريخ ، ومنذ القرن الأول قبل الميلاد ، كانت صداقة هذين الشعبين تزداد عمقاً ورسوخاً . ومع أننا نحيل القارىء الكريم إلى الملاحقة الجدية والممتعة لهذه العلاقات التاريخية في كتاب « أرمينيا في التاريخ العربي » للأستاذ أديب السيد ، سنقول في الماعة سريعة أن ملوك أرمينية ، ورجال الدين فيها ، كانوا يقدرون أهمية التجاور الجغرافي في تعزيز التواصل الحضاري بين بلادهم وشبه جزيرة العرب وبلاد الشام . وكانوا يولون العرب ثقتهم ، فيقيمون معهم علاقات وطيدة ، ويتعاونون معهم سياسياً وعسكرياً ، ففي أثناء فتوحات الملك ديكران الثاني لسورية ولبنان وفلسطين ، كانت فرقة عربية تقاتل في جيشه ، وكانت جيوش الملك الأرمني أردافست ، تضم بعض الكتائب العربية .

وعندما غدت أرمينية ـ بعد الفتوحات ـ ولاية تابعة للدولة العربية الاسلامية ، انتهج الخلفاء والمسلمون ، حتى خلافة المقتدر ، نهج الرسول الذي أعطاه لأبراهام بطريرك الأرمن عندما زار مكة المكرمة وطلب الأمان وحماية رهبنيات الأرمن وأوقافهم في فلسطين . وكان من شأن هذه السياسة أن فتحت الأبواب لتوسيع التفاعل التاريخي بين أرمينية ، والولايات العربية الاسلامية . مما يجعلنا نعتقد أنه بالإضافة إلى كون هجرات الأرمن إلى بلادنا

محكومة بظروف الصراع بين الامبراطوريتين الفارسية والرومية ، أو بالحروب والغزوات اللاحقة ، فهي تأكيد لعلاقة الأرمن بالعرب ، وامتداد تاريخي لها . فمنذ وصول ديكران الثاني (94 ـ 55 ق . م) إلى الساحل الفينيقي ـ كما يقول الدكتور جميل جبرا ـ نشأ تفاعل حضاري بين الأرمن واللبنانيين القدماء ، ومنذ هذا التاريخ بدأ الأرمن يؤمون لبنان ، ومنهم من استقر فيه ، واندمج مع شعبه . ثم سار على خطاهم الكثيرون في العهود الميلادية الأولى . وحتى لو كانت أسباب الهجرات اللاحقة أسباباً اضطرارية أملتها الحرب ، فهذا لا يقلل من أهمية مساهمتها في خلق التفاعل مع العرب . والدليل على ذلك أن العرب هاجروا إلى أرمينية رغم اختلاف أسباب هجرتهم عن هجرة الأرمن ، وقد هاجروا هجرات جماعية قوامها قبائل بأكملها كانت تبغي دعم الفتوحات العربية ، وهجرات فردية غالباً ما تعود إلى عوامل جذب اقتصادي فرضه واقع أرمينية المزدهر آنذاك . وفي الحالين معاً ، صارت أرمينية وطنهم ، كما صارت البلاد العربية الوطن الثاني للمستوطنين الأرمن كما أثبت التطور التاريخي لعلاقتهما فيما بعد ، وفي مطلع القرن العشرين خاصة .

يقسم المؤرخون هجرات الأرمن إلى متقطعة وفعلية ، وداخل هذا التقسيم يتكلمون عن الهجرة إلى لبنان ، والهجرة إلى سورية ، فمن الممكن ملاحظة أربع فترات تمتد في لبنان من القرن الأول قبل الميلاد حتى عام 1939 ، وفي سورية من عام 539 م حتى عام 1939 أيضاً . والتاريخ الفاصل بين الهجرات المتقطعة ، والهجرات الفعلية هو عام 1895 الذي بلغت فيه مجازر عبد الحميد ضد الأرمن ذروتها .

وبدءاً من عام 1909 ، وفي أثناء مجازر 1915 ، وبعدها ، هاجرت آلاف العائلات إلى هذين البلدين ، وبلغ عدد أفرادها ربع مليون أرمني ، واثر ضم كيليكية ، ولواء اسكندرون إلى تركية بعد أن تنازلت عنه فرنسا

بموجب اتفاق سري عام 1939 ، هاجر حوالي (25,000) ألفاً من الأرمن ، بقي منهم (15,000) ألفاً في سورية ، ونزح الباقون إلى بلدة عنجر اللبنانية .

وتخللت هذه الفترة هجرات بأعداد قليلة إلى فلسطين والعراق ، وأقل إلى مصر . وكان لبنان حتى عام 1975 المركز الرئيس للأرمن المغتربين في الشرق الأوسط . وبعد وقوعه تحت الانتداب الفرنسي نتيجة لانتصار الحلفاء على تركية في الحرب العالمية الأولى ،تشكلت فيه لجنة « الاتحاد الوطني » من الطوائف الأرمنية ، وحزبي الطاشناق ، والهنشاق ، كانت مهمتها أن تحوّل الأرمن اللاجئين أثناء مذابح 1915 من البلدان العربية المتواجدين فيها إلى لبنان لتوطينهم فيه ، أو لجعله محطة انطلاق لهجرتهم إلى أمريكة وأوروبة .

ومع مرور الزمن توزع الأرمن في مختلف أرجاء سورية ولبنان ، والبلاد العربية الأخرى التي هاجروا اليها ، وصارت لهم أحياء خاصة في المدن ، وغدوا مواطنين عرباً ، ينخرون في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية . وغايتنا الآن أن نعرف أهمية العلاقات الخاصة ، والمتميزة تاريخياً بين العرب والأرمن ، في تكوين الموقف العربي من مذابح الأتراك ضدهم . هذا الموقف الذي سنتحدث عنه انطلاقاً من مستويين متداخلين :

(آ) المستوى الرسمي المتمثل بموقف الحكومات العربية .

(ب) المستوى الشعبي الذي تعبر عنه آراء المفكرين ، ورجال السياسة والأحزاب ، والمنظمات الشعبية ، والفنانين ، ورجال الدين .

وسنعمد في نقاش هذا المستوى أو ذاك إلى الأخذ بعين الاهتمام البعد التاريخي للعلاقة بين الحضارتين العربية والأرمنية من جانب ، وللعلاقة بين

هاتين الحضارتين وسياسة التتريك العنصرية من جانب آخر . لأننا سنرى عبر استقصاء الآراء ، وتحليل التصريحات المختلفة أن الرأي العام العربي ذو خلفية بعيدة الغور في فهم الأسس الفكرية ، والسياسية ، والإنسانية لصداقة العرب والأرمن . وقد يكون في تركيزنا على التكوّن التاريخي لهذه الأسس المزيد من إضاءة الرأي العام العربي من مجازر الأرمن ، وعلى المستويين اللذين ذكرناهما في الأسطر السابقة .

آ ـ موقف الحكومات العربية من مجازر الأرمن :

تنبع صعوبة البحث في هذا الموقف من عدة اعتبارات لا يمكن تجاهلها ، منها أولاً قلة الوثائق التي بين أيدينا عن تصريحات رجال السياسة العرب ، ومواقفهم الخاصة بالأرمن ، وثانياً ضرورة التحديد الزمني لهذا الموقف الذي يخلق مسافة بين تاريخ المجازر الأرمنية ، وتواريخ تشكيل الحكومات العربية المتطابقة ـ في رأينا ـ مع تواريخ استقلال البلدان العربية . وقد تكون هناك آراء ، وتصريحات ، أو بيانات صادرة عن مسؤولين حكوميين عرب تابعين للسلطات العثمانية ، أو خاضعين لحكم الانتداب الأجنبي الفرنسي أو الانكليزي . لذا أدرجنا موقف الحكومات تحت بند « المستوى الرسمي » ليتسنى لنا أن نورد بعض هذه الآراء ، لعلها تغطي جزءاً من فترة ما قبل الاستقلال . مع اقتناعنا بأن المناخ العام في الوطن العربي كان مناخ كفاح واسع للإنفصال عن العثمانيين ، والتخلص من استبدادهم مما يجعل من تخمين موقفهم الداعم لقضية الأرمن أمراً غير بعيد عن الصحة والموضوعية . ومثل هذا التخمين قد ينسحب على فترة الاستقلال وما بعدها أيضاً .

يمكن أن نقرأ ملامح أول موقف عربي من مجازر الأرمن ، فيما قام به بعض الموظفين التابعين للامبراطورية العثمانية ، ومواقف أخرى لقادة عرب أيضاً . هذا على الرغم مما كان يتعرض له الشعب العربي من الاضطهاد ،

والاعدام ، والنفي على أيدي الاتحاديين . ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا : ربما كان هذا المصير المشترك هو الذي أيقظ الأرمن والعرب ، وحثهما للرد على سياسة التتريك العنصرية ، بإحياء تراثهما الروحي والثقافي ، وتأسيس النوادي والجمعيات ، والأحزاب السياسية ، وطباعة الكتب ، وغير ذلك من بوادر النهضتين الأرمنية والعربية . وعلى هذا نرى أن إقدام موظف عربي على مساعدة المنكوبين الأرمن ، لم يكن ، في أسوأ الأحوال ، مجرداً كلياً عن وعي هذا المصير . فحتى أنصار التيار العثماني داخل الوطن العربي ، كانوا ينددون بجرائم الأتراك ، وينفون أن يكون في ذلك أبسط ما ححض عليه الإسلام ، وما سار في سبيله الخلفاء العرب المسلمون .

ثمة بادرتان تمثلان الموقف الرسمي العربي هما :

1 ـ تعاطف الموظفين العرب مع المهجرين الأرمن أثناء مجازر 1915 ، إذ حاول هؤلاء الموظفون ، قدر استطاعتهم ، التخفيف من حدة أوامر الباب العالي القاضية بنفي الأرمن الناجين من الموت إلى الصحراء ليموتوا هناك . بل ان بعضهم رفض رفضاً قاطعاً تنفيذ هذه الأوامر ، واضعاً الاعتبار الإنساني فوق كل اعتبار ، مع المعرفة التامة بما سيجرّ موقفه من عواقب تفقده مرتبته ، ومركزه . وهذا ما فعله « جلال بكك » عندما وصلته هذه البرقية الصادرة ، بتاريخ مجهول عن وزير الداخلية « طلعت بك » . « بالرغم من أن قراراً سابقاً قد اتخذ في سبيل القضاء على العنصر الأرمني الذي يريد ، منذ قرون طويلة ، تقويض الأسس المتينة للدولة ، الأمر الذي اتخذ مصيبة كبيرة بالنسبة للحكومة ، فان مقتضيات الزمن لم تكن توفر إمكانية تحقيق هذه النية المقدسة . والآن ، وبعد القضاء على كل العقبات ، ونظراً لأنه جاء وقت تخليص الوطن من هذا العنصر الخطر ، نوصيكم بإلحاح بأن لا تستسلموا لمشاعر الشفقة أمام وضعهم البائس ، وأنه في سبيل وضع حدّ لوجودهم يجب أن تعملوا بكل ما لديكم من عزم

للقضاء على الاسم الأرمني في تركية . ويجب الاهتمام بأن يكون الموظفون المكلفون بتحقيق هذه المهمة ، وطنيين وموضع ثقة » . فهو لم يتورع في أن يرسل برقية إلى استانبول يرد فيها الأمر قائلاً : « انني والي هذه المنطقة ، وليس بإمكاني أن أكون جلادها » . وعلى الفور أقيل من منصبه ، وعينت الحكومة التركية « سامي بك » في مكانه ، فرفض أوامر الإبادة أيضاً ، ليستبدل بمصطفى عبد الخالق الذي كان من أنصارها .

وقد اهتم حاكم دير الزور « سواد بك » بالنازحين الأرمن ، وأغاثهم « وأعطاهم الخيم ليحتموا تحتها ، وأجاز لهم ممارسة التجارة في نطاقها الضيّق لكسب قوتهم ، ووجه أوامره إلى يوسف ضياء بك قائم مقام رأس العين أن يعامل الأرمن الموجودين لديه معاملة حسنة . وما كادت أخباره تصل إلى الباب العالي حتى جاءته الأوامر من والي حلب (مصطفى عبد الخالق) أن يجرّ المهجرين في رأس العين إلى أقاصي الصحراء ، لأن تجميعهم الذي قام به « يتناقض وأهداف الحكومة المقدسة » وكان جواب سواد بك أن وسائط النقل غير متوفرة للقيام بهذا العمل ، وأضاف : « إذا كانت الغاية المستهدفة هي إبادتهم ، فانني لا يمكن أن أفعل ذلك ، ولن أسمح لأحد أن يقوم بذلك » ، وبناء على تصريحه الخطير هذا ، استبدله « طلعت بك » بحاكم آخر .

ولا بد أن مواقف الموظفين العرب كانت تتعاضد مع سلوك الأهالي لمساعدة الأرمن في الاختباء ، والهرب من بطش الأتراك وعملائهم . ومهما يكن من أمر التأثير المتواضع لهذه المساعدات ، فان في رفض التورط مع الأتراك في ذبح الشعب الأرمني ، تنديداً بهمجية الاتحاديين ، ومناصرة لقضية الأرمن ، جاءت في نطاق رسمي ضيق ، يمكن أن نجعله الطور الأول لمواقف الحكومات العربية فيما بعد .

2 ـ والبادرة الرسمية الثانية التي تحدد موقفاً أشمل بالقياس إلى التمثيل الحكومي العربي ، هي المعبر عنها في الرسالة الصادرة عن شريف مكة حسين بن علي سنة 1917 ، المتضمنة لوصيته الآتية بالأرمن :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من الحسين بن علي ملك البلاد العربية ، وشريف مكة وأميرها ، إلى الأمراء الأجلاء الأماجد ، الأمير فيصل والأمير عبد العزيز الجربا ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد . صدرت الأحرف من أم القرى بتاريخ 18 رجب 1336 نحمد الله الذي لا إله إلا هو (. . .) . وان المرغوب بتحريره المحافظة على كل من تخلف بأطرافكم وجهاتكم وبين عشائركم من الطائفة اليعقوبية الأرمنية تساعدوهم على كل أمورهم وتحافظون عليهم كما تحافظون على أنفسكم وأموالكم وأبنائكم وتسهلون كل ما يحتاجون اليه في طعنهم ، وإقامتهم فانهم أهل ذمة المسلمين ، والذين قال فيهم صلوات الله عليه وسلامه : من أخذ عليهم عقال بعير كنت خصمه يوم القيامة . وهذا من أهم ما نكلفكم به ، وننتظره من شيمكم وهممكم والله يتولانا وإياكم بتوفيقه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

ان في هذ الرسالة موقفاً ذا أوجه متعددة أكثرها جلاء وجه ظاهر ، ووجه متضمن . فالوجه الظاهر هو من وصية شريف مكة بوجوب المعاملة الإنسانية للأرمن ، المنطلقة ، تحديداً ، من قانون موضوعي يستقي معاييره من الدين الاسلامي ، وسنّة النبي محمد (ص) . وعلى أساس هذا القانون تغدو الطوائف الأخرى « من أهل ذمة المسلمين » ، أي أمانة في أعناقهم تعادل أمانتهم على أنفسهم وأموالهم وأبنائهم . وهذا ما ركزت عليه الوصية بخصوص الأرمن . أما الوجهه المتضمن فسينطوي على مناهضة العثمانيين فكرياً ، وأخلاقياً ، ودينياً ، قبل إعلان الحرب عليهم . فالحرب

نتيجة لهذه المناهضة وليست سبباً على ما نظن ونعتقد . وشريف مكّة يعيد في وصيته الشيم العربية الاسلامية إلى مسارها الصحيح ، ويبين من خلال ذلك مدى الشطط العثماني ، وجحوده بتعاليم الاسلام ، وسنة الرسول ، أولاً يصور ذلك موقفاً عربياً اسلامياً يجرد الأتراك من لبوسهم الاسلامي الزائف ، ليظهروا على حقيقتهم ، وحوشاً ، وسفاكي دماء ؟!

ولا نظن أن حكومة عربية خرجت ، بعد الأستقلال ، على هذه السنن العربية الاسلامية التي رسم معالمها الرسول الكريم ، وسار عليها ، وعمّقها الخلفاء وأكدّها الشريف حسين بن علي . ولا يزال الشعب العربي يعتز بها ، ويسعى لترسيخها باعتبارها جزءاً من كيانه الحضاري الممتد منذ القدم حتى الآن .

ومرة أخرى تعوزنا الوثائق الرسمية التي تفصح عن الموقف الحكومي في البلاد العربية من مجازر الأرمن . لكن واقع الأرمن الذين نجوا من هذه المجازر يدلنا أن حكومات البلاد العربية التي يوجدون فيها ، قد ترجمت مواقفها من قضيتهم إلى فعل إنساني حضاري يكمل صداقة الشعبين العربي والأرمني ، ويستقي من عراقتها الكثير من التقاليد المدنية الراقية . وسندنا في البرهان على ذلك مجموعة من القرائن المستخلصة من حياة الأرمن في ظل تلك الحكومات ، وعلى رأسها حكومتا سورية ولبنان ، باعتبار أن أغلبية الأرمن النازحين استوطنوا هذين البلدين .

أولى القرائن الدالة على رفض العرب ، وتنديدهم بمجازر الأتراك ضد الأرمن ، أن الحكومات الوطنية العربية ، وفي سورية ولبنان خاصة لم تنقض قرار منح الأرمن النازحين جنسيات البلدان العربية التي يقيمون فيها كما نصت معاهدة لوزان ، بل دعمت هذا القرار ، وربما غيرت من مراميه ، وقلبتها رأساً على عقب عندما عاملت الأرمن معاملة المواطنين

العرب ، يتمتعون بما يتمتع به العربي من حقوق ، ويقومون بما يقوم به من واجبات . فالفرنسيون ـ في أثناء فترة انتدابهم على سورية ولبنان ـ كانوا يبغون من توطين الأرمن ، ومنحهم الجنسية غايات غير نزيهة كانت واجهتها هي تحقيق معادلة ضرورية بين المسلمين والمسيحيين في لبنان خاصة . لكن حقيقتها لم تكن كذلك إطلاقاً . فما تلا من أحداث أثبت أنهم كانوا يرون في الأرمن إمكانية تحول إلى أداة يستخدمونها ضد الوحدة الوطنية ، وضد حركة الكفاح الوطني من أجل الاستقلال . وقد عزفوا على هذا الوتر بدعوى أن لفرنسة مهمة تقليدية هي حماية الأقليات . وقد تراءى لهم ، عشية الاستقلال ، عندما هبّ الشعب العربي السوري بمختلف فئاته لمحاربتهم ، أنهم سيتمكنون من تفتيت هذا التضامن الشعبي الموحد بتأليب الأرمن ، وجعلهم يعتقدون أن في استقلال سورية بداية لاضطهادهم . والأجدى لهم أن يقفوا مع فرنسة التي آزرتهم أيام محنتهم ، والتي « ستقدم لهم جميع المساعدات الممكنة ، وتعدهم بمستقبل أفضل إن هم وقفوا إلى جانبها للقضاء على الحركة الثورية في المدن السورية ، وفي حلب بصورة خاصة ، على اعتبار أن الأرمن يشكلون مركز ثقل فيها نظراً لكثافتهم . ورفض الأرمن هذا العرض المغرض ، وحاول الفرنسيون الانتقام بتدمير الأحياء الأرمنية ، وكادوا يقصفونها لولا تدخل احسان الشريف ، وتطويق الثكنة الفرنسية القريبة من أحياء الأرمن .

وقد قدرت الحكومة السورية بعيد الاستقلال ونيابة عن الشعب العربي السوري للأرمن هذا الموقف الوطني النبيل بصفتهم مواطنين لا رعايا ـ ولا سيما اثر النداء الذي كان وجهه مطران الطائفة الأرثوذكسية في حلب السيد « زارح وارتابد » بدعوته جنود الطائفة المنخرطين في الجيش الفرنسي ابان الانتداب إلى ترك وحداتهم والالتحاق بصفوف الثورة والمقاتلين ـ فمنحت سيادته بموجب المرسوم رقم 381 تاريخ 2 / 4 / 1946 وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى .

وفي لبنان أداروا خيوط اللعبة ذاتها ، ولكن الأرمن أثبتوا مواطنيتهم الصادقة ، « وكانوا مثال المواطنين الشرفاء الذين يرعون حرمة هذا الوطن » بالإضافة إلى أنهم كانوا على وعي بالحقيقة التي حاول الفرنسيون الالتفاف عليها ، ويلخّص هذا الوعي قول الاستاذ باروير يرتسيان : « بالإضافة إلى نكوثهم بالعهود التي قطعوها للأرمن وهو ما دفعهم إلى هجرة جديدة ، صمّم الفرنسيون المستعمرون على استغلال الأرمن المقيمين في سورية ولبنان واستخدامهم وفق مصالحهم الامبريالية . وكانوا يرغبون في استخدام الأرمن كاحتياطي لقوتهم ضد حركة التحرر في سورية ولبنان » .

إذاً ، مهما قيل عن تباين المواقف الذي حاول المستعمرون خلقه ، يبقى موقف الحكومتين العربيتين في سورية ولبنان موقفاً يتسم بالإنسانية والتقدير للعلاقات التاريخية الطيبة مع الأرمن ، كما يوضح كلام الشيخ محمد سويد الذي نشره في جريدة السفير بتاريخ 24 / 9 / 1979 ، في مقال بعنوان « كلمة حق من أجل الأرمن : « لم نعارض استيطان الأرمن بلادنا بالرغم من ضآلة العشرة آلاف كيلو متر مربع ، وقلنا ما دام شركاؤنا يريدون ذلك فليكن لهم ما يريدون . وما دام الأرمن قد اقتلعوا من ديارهم فليكن سكوتنا من باب الإنسانية ، والمشاركة في آلام هؤلاء المشردين » . ففي هذا الكلام المنشور اثر الاعتداءات على أحياء الأرمن في بيروت توبيخ لكل من تسول له نوازعه أن يشكك في مواطنية الأرمن ، ويتورط في مخططات المتآمرين على وحدة لبنان ومدنيته .

وثانية هذه القرائن أن السلطات الحكومية في سورية ولبنان حرصت على مساعدة الأرمن ، وتوفير الحرية لهم ، فقدمت لهم الخدمات والإعانات ، وفتحت لهم المدارس منذ وصولهم ، وهيأت لهم أن يقوموا بشعائرهم الدينية ، وأن يتعلموا لغتهم وآدابهم . وهكذا كانت معاملتهم في

الأردن والعراق ومصر . ولمزيد من توضيح هذا الجانب ، نؤثر أن نفصّل فيه بعض الشيء .

يبلغ عدد الأرمن في لبنان ، بحسب احصاءات عام 1970 ، ثلاثمئة ألف نسمة ، يتوزعون في مناطقه المختلفة ، في بيروت ، وأنطلياس ، وجونية ، وجبيل ، والبترون ، وطرابلس ، وعددهم في سورية مئة وخمسون ألفاً ، أغلبهم في حلب ودمشق ، والباقي موزعون بين الجزيرة ، واللاذقية ، وطرطوس . وتمتد نشاطاتهم في سائر حقول الحركة الاجتماعية العملي منها خاصة ، والنظري عامة . وأكثر ما يميزهم انجذابهم نحو الصناعة بفروعها المتعددة ، كالدباغة ، وصناعة الأدوات المنزلية ، والاسفنج الصناعي ، والصياغة ، والميكانيك ، والعدسات الطبية . وحسبنا أن نشير إلى أن في سورية وحدها مئة وخمسين معملاً للنسيج الآلي تابعة لمالكين أرمن .

وللأرمن باع طويل في التجارة الخارجية (استيراد وتصدير) ، والداخلية كالمجمعات الكبيرة ، والمتوسطة ، والمحلات الصغيرة . وتساهم خبراتهم الصناعية في تدعيم أعمالهم التجارية ، وتوسيع نطاقها .

ويزاول الأرمن المحاماة ، والهندسة ، والطب . ويشهد التعليم بمختلف مراحله نشاطاً ملحوظاً في تصاعده ، وعدد مؤسساته . وقد أولت وزارتا التربية والتعليم في سورية ولبنان عناية كبيرة للمدارس الأرمنية ، حيث أصبح منهجهما التدريسي يطبق فيها ، بالإضافة إلى منهاج تدريس اللغة والأدب الأرمنيين . وتميل الأجيال الجديدة من الأرمن لتعلم اللغة العربية بشكل أفضل من السابق .

وأسس الأرمن جمعيات خيرية وثقافية متعددة في الوطن العربي ، علاوة على الأديرة والكنائس ، والأندية الرياضية ، والمؤسسات الصحية

وغيرها مما يؤكد حقوق المواطنة التي يتمتعون بها في ظل الحكومات الوطنية العربية .

وكانت للأرمن مساهمات باكرة على الصعيد السياسي منذ عهد العثمانيين ، حيث عرف لبنان متصرفين أرمنيين أخلصا له وغارا عليه ، وعلى أبنائه ، وهما داوود باشا ، وأوهانيس قيومجيان باشا . ولقد كان للأرمن قبل الاستقلال (1934 ـ 1937) نائب واحد ، ومع ازدياد عددهم ، صار لهم ستة ممثلين في المجلس النيابي للبناني عام 1974 . وفي سورية عرف البرلمان نظريت يعقوبيان نائب دمشق لدورة 1943 ، وفريد أرسلان وعبدالله الفتال ، نائبي دمشق لعام 1947 ، وكان الفتال يشغل منصب مفتش في وزارة العدل . وصار بعض الأرمن قادة عسكريين مثل هرانت ماليويان (الذي يحمل وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة حيث كان مديراً للشرطة وللأمن العام في حلب) ، ومنحته الحكومة المصرية وسام النيل من الدرجة الثالثة ، ومثل اللواء رامانوكيان . ونذكر هنا ان الأرمن قدّموا مجموعة من الشهداء على أرض فلسطين ، وهم يعيشون قضايا الأمة العربية ، ويدافعون عنها انهم مواطنون عرب لكل ما تعنيه الكلمة من معنى حقوقي وسياسي .

أما القرينة الثالثة ذات الطابع الحكومي الصرف فهي الزيارة التي قام بها السيد الرئيس حافظ الأسد لأرمينية السوفيتية عام 1979 ، اذ كانت فرصة للتعبير عن الجذور التاريخية للتعاون بين العرب والأرمن اكدها القائد المناضل في الكلمة التي القاها بهذه المناسبة ومنها قوله : « انّ ما شاهدناه اليوم في متحف المخطوطات القديمة في مدينة يريفان لدليل على الاتصال التاريخي والحضاري والتبادل العلمي والثقافي بين شعبنا وشعبكم ، وأن لدينا فكرة واضحة عن تطوركم ونضالكم عبر التاريخ ، ولاشك في أنكم من خلال ذلك كله تستحقون التقدير والاحترام » .

« لقد كان شعبكم دائما يتميز بالحيوية ، والنشاط والجهد من أجل بناء أفضل ، سواء كان ذلك داخل وطنكم أم خارجه ، ويسرّني أن يكون كثيرون من ابناء هذه الجمهورية قد أمضوا فترة من الزمن في سورية عندما عادوا الى هنا ، تركوا وراءهم سمعة جيدة ، وكانوا مخلصين في جهدهم ، وأوفياء في علاقاتهم ، وتجدر الاشارة الى أنه من بين الروابط العديدة القائمة بيننا ، فان الروابط العائلية قائمة بين الكثير من الأسر السورية ، وأرمينية ، وهي تشكل رابطة انسانية هامة . »

ويسعدني أن اشير الى أن المواطنين في بلادنا من الأرمن السوريين ، يساهمون بشكل جيد وبحماسة ، في بناء البلاد ، ويشتركون مع سائر أبناء الشعب ، في الدفاع الشجاع عن حريّتها وحدودها » .

ب ـ موقف الشعب العربي من مجازر الأرمن :

قبل الحديث عن موقف الشعب من مجازر الأرمن ، لابدّ من الاشارة الى أن ما قامت به الحكومات العربية في دعم الأرمن النازحين ، لم يكن معزولا عن مشاعر الشعب ومؤازرته ، بل كان يستند الى هذه المؤازرة ، وينطلق منها ليحوّلها من رغبة الى واقع . ودليلنا فيما نقول هو الاستمرار المتواتر لايجابية الموقف الرسمي العربي رغم تغيّر الحكومات ، ولاشكّ في أن تعاطف المواطنين العرب مع الارمن ، والأخذ بيدهم للنهوض من جديد بعد الكارثة التي حلّت بهم ، هو الذي يسّر لهم أسباب الحياة التي يعيشونها في المجتمعات العربية . والحقّ أن الفصل بين الموقف الحكومي ، والموقف الشعبي غير ممكن الا في حالة واحدة هي اظهار الطابع .الوجداني للرأي العام للشعب ، والأبعاد الفكرية ، والانسانية ،والاخلاقية التي تكوّنه ، والجديرة بأن تخلق منه موقفا واعيا ومتكاملا في آن معا .

ونحن لانريد ، بطبيعة الحال ، أن نجعل من السلوك الانساني الذي اتبعه العرب مع الارمن ، قضية خارقة في مثاليتها ، ونشدّد على انها

بادرة فريدة لاتتكرّر . لأنه أولا سلوك يعد من أبسط ما فطر عليه الانسان العربي من شيم ، وتقاليد ، وثانيا لأنه لايشكل موقفا ، بل مقدمة لموقف أعمّ وأعمق . وهذا ما نريد بيانه ،وتوضيحه .

وأول ما يجدر بنا ذكره ، هاهنا ، هو أن العثمانيين لم يكونوا يريدون تتريك الأرمن وحدهم ، بل والقوميات التابعة لهم كافة أيضا ، وما ذاقه العرب من ويلات «سفر برلك » وحملات الدرك الابتزازية ، وغارات قطاع الطرق « الشتى » ، يفوق بكثير ما سجّله التاريخ . وهذا يعني أنهم كانوا معنيين بالاضطهاد كالارمن ، لكن بوسائل أخرى غيرُ الابادة والتهجير . وفي هذه الحال ، سيكون شعورهم تجاه الارمن ، شعورا مشتركا نابعا من وحدة المعاناة على نحو ما يبيّن هرج داسنابيديان في كتابه «القصة الارمنية » رابطا مصير الشعبين من خلال موقف العرب من الارمن : « وكم كان كبيرا تفاني أبناء الامة العربية العظيمة وحدبهم على قوافل المهجّرين والناجين من المجازر ! انّ هذين الشعبين كانا يخضعان في ظل الاستبداد التركي ، لمصير واحد ، وتشدّهما تطلعات مشتركة . اذا لم يكن بد من أن يتآخيا في أيام البؤس والشقاء » . ولا نعتقد أننا نبالغ اذا افترضنا ان خوف العثمانيين من خطورة الشعبين وتآخيهما هو الذي دفع بهم الى فرض الرقابة على العرب ومنعهم من تقديم العون للمنكوبين الارمن ، وتحويل مناطقهم الى مركز للأوبئة والرعب . والحادثة التي ينقلها داسنابيديان من مذكرات « نعيم بك » خير شاهد على افتراضنا هذا . فقد ذكر نعيم بك «أنّه تمنى على نائب مدير المهجرين في حلب أن يوعز الى المسؤولين بالتمهل في ارسال قوافل جديدة من المهجّرين باتجاه الصحراء ،وذلك بحجة تدارك خطر تفشّي الجوع والاوبئة بين جموع العراقيين ، فردّ عليه نوري بك : يابني ، انّنا بهذه الطريقة نقضي ، في آن معا ، على عنصرين خطرين على حدّ سواء ،، أليس من يموتون الى جانب الارمن عربا ؟ انهم يعبدون طريق التتريك »..

ثم انّ حفاوة العرب بالارمن -على عفويتها - تشي بمعرفة أن هؤلاء المنكوبين مظلومون مثلهم ، ولذا لم ينطل عليهم أسلوب التأليب الديني ، فبذلوا ما يستطيعون لنجدة الارمن ، وقدّموا لهم ما يملكون من لباس ، وطعام ومأوى . ورفضوا أوامر السلطان المقدسة ، فعندما طلب جودت بك والي اضنة في اثناء زيارته لدير الزور في شهر شباط عام 1916 ، أن تقوم العشائر العربية بقتل الارمن ، قوبل طلبه بالرفض ، فاستقدم أفرادا من المناطق المجاورة للقيام بذلك . ومثل هذه المواقف الانسانية اكثر من أن يحصى ؛ ومن أجل ذلك نورد ما قاله الارمن أنفسهم فيها ، كما ورد على ألسنة كتّابهم ، وأدبائهم ، ومفكّريهم ، مستشهدين بما

أثبته الاستاذ عثمان الترك في كتابه « صفحات من تاريخ الامة الارمنية » : تقضي المروءة بأن نسجّل للعرب عامة ،وللسوريين خاصة ما أظهروه من شهامة وعطف أيّام محنتنا لن ينساها لهم الارمن مدى الحياة . فقد آووا في بيوتهم الكثير من اليتامى والأيامى والمشرّدين الى أن انقشعت الغمّة . وقد أقدم العرب على هذا العمل الانساني بدافع من وجدانهم وضمائرهم رغم فداحة المسؤولية التي عرّضوا أنفسهم لها فيما لو شعرت بهم السلطات التركية . ولكن أصالة العنصر العربي ، وطيب محتده ، جعل اخواننا العرب يضربون عرض الحائط بكل الاعتبارات ، فمدّوا أيديهم ، وفتحوا قلوبهم وبيوتهم لكل أرمني لاذ بهم ، أو استجار بحماهم » .

كانت المقدّمات نواة موقف ويزال يتكامل في مجتمعنا العربي ،حتى أرسى على أرض فكريّة ثابتة ينطلق منها شعبنا العربي بمختلف فئاته ،وأحزابه ، وتنظيماته النقابية ، والدينية ، والثقافية ، وبصورة خاصّة في سورية ولبنان ، وانه ليضيق المجال عن ذكر كل ما يتعلق بهذا الشأن ، لذا سنستخلص السمات العامّة لاجابات مجموعة من المفكرين ، والمسؤولين الحزبيين والمحامين ،والفنانين ، وأعضاء القيادات النقابية ، على أسئلة

الاسبوعية الأرمنية « الثقافة الوطنية » التي وجّهتها اليهم بمناسبة الذكرى السبعين لمذابح عام 1915 ،

السمة الاولى تقوم على التنديد بمجازر الاتراك العثمانيين ، وأعتبارها انتهاك خطير لانسانية الانسان ، وعلى ابداء روح التعاطف مع الشعب الأرمني المغدور . يقول رشيد الصلح ، نائب بيروت ، ورئيس وزراء لبنان سابقا ، واصفا هذه الجرائم :» بدأ الأتراك بالمجازر التي أصابت اخواننا الأرمن (...) فقتلوا النساء والشيوخ والأطفال وأحرقوا المدن والقرى ،وذبحوا من ذبحوا منهم مستفيدين من ظروف الحرب العالمية الاولى ، ومن تواطوء الدول الكبرى معهم . فكانت حرب الابادة هذه أوّل حرب من نوعها في القرن العشرين ،تضاءلت أمامها جميع المجازر ، وحروب الابادة التي حصلت بالعالم » .
والتنديد ـ كما هو ظاهر ـ لايدور في فراغ ، بل ينطلق من أسباب أوّلها همجيّة العثمانيين ، وثانيها الموقف السلبي المتواطىء للدول العظمى التي كان بامكانها أن تنفّذ وعودها بمساعدة الارمن . ولعلّ أكثر الأسباب مفارقة وصدما للعقل والمنطق ما يذكره نائب بيروت فريد جبران الذي يخلص بعد أن يظهر بشاعة الجرائم العثمانية ـ الى أنّ مطالبة الارمن بحقوقهم أدت الى قتلهم ، وهذا اسلوب الاجرام الذي يقضي على من يبحث عن حقه بالموت . كما نقرأ في اجابته : « لقد قام الشعب الارمني يطالب باسترجاع حقوقه السليبة في أرضه ووطنه ، فما كان من النظام العثماني الا أن ردّ على هذا الحق بالمجازر التي بقيت محفورة في فكر كل أرمني » . وينبعث التنديد في صرخة انسانية عامة تستنكر تأصل الجريمة في دعاة العنصرية ، يعبر عنها الأمين العام للاتحاد الوطني لنقابات العمّال والمستخدمين في لبنان ، فوزي أبو مجاهد ، قائلا : «لاتستطيع الانسانية مهما تنوعت أفكارها ، وتعدّدت اتجاهاتها ، واختلفت مشاربها ، ومعتقداتها ، الا أن تقف عند هذه المجزرة الرهيبة ، التي نفذتها القوى الظلامية السوداء ، بحق الشعب

الارمني المسالم الآمن وتندد بجور النظام العثماني وظلمه وتعسّفه وحقده وتخلفه . هذا النظام الذي ارتكب أبشع وأقذر مجزرة ، بحق الشعب الارمني فحسب ، بل بحق الانسانية جمعاء . اذ لم يقم بأي اعتبار لحقوق الانسان ، ولا أي اعتبار للقيم والاخلاق » .

والسمة الثانية هي أنّ التعاطف مع الشعب الارمني لايقف عند حّ الدعم والتضامن ، انما نقرأ فيه مشاركة وجدانية ، وتوجّعا كتوجّع الأخ على أخيه . ولفعل المشاركة الوجدانية أسباب كثيرة يكتفي رئيس المجلس الثقافي للبنان الجنوبي حبيب صادق بالاشارة الى اثنين منهما :

1 ـ كون الشعب الارمني شعبا صديقا لنا ، خالص الصداقة ، وهو مثل شعبنا العربي قد اكتوى بنار التسلّط العثماني ، وكابد من طغيانه ما كابد ، فكنا رفاقا في محنة واحدة .

2 ـ والسبب الثاني ينطوي في كوننا قد تواصلت علينا المظالم ، كما تواصلت عليه ، فقد حصد منا الغزاة الفرنسيون ، في الجزائر ، وسورية ولبنان ، مئات الألوف . ومثلهم صنع بنا القراصنة الانكليز في مصر والعراق وفلسطين ، ثم اقتحمت ديارنا قبائل الصهاينة (. . .) . من هنا يتضاعف احساسنا بتلك المحنة الدامية التي نقف اليوم خاشعين في ذكراها السبعين » . فصادق هنا لايرى في المحنة الارمنية الا وجهاً من أوجه المحنة العربية . ويكاد يجمع على هذا الرأي معظم من شاركوا في الاجابة على أسئلة « الثقافة الوطنية » .

والسمة الثالثة يجسّدها ربط العنصرية الطورانية بالحركة الصهيونية وبالرأسمالية العالمية ، واظهار الطابع المتوحش للنظام الامبريالي العالمي الذي يهدد قيم الانسانية ، وسلامها . يقول المرحوم الدكتور حسين مروة الاستاذ في الجامعة اللبنانية شارحا ذلك : « ظهر في تاريخ البشرية الحديث

أشكال عدة مختلفة من الحركات ذات النزعة العرقية العنصرية الشوفينية المغرقة في العداء للانسان والحرية . ظهرت مثلا الطورانية التركية ، والنازية الالمانية ،والفاشية الايطالية . وقبل هذه جميعا ظهرت الصهيونية » . وبعد أن يبين أصول الرغبة العربية الأرمنية الواحدة للخروج من حال الركود والتخلف في ظل العثمانيين ، يجد أن المجزرة الرهيبة ضد الشعب الارمني « حلقة أولى في سلسلة مجازر متلاحقة أخذت ترتكبها من بعد القوى الظلامية العنصرية ... كل ذلك حصل في عصر الامبريالية ... كل ذلك حدث في عصر احتدام الصراع الامبريالي لاعادة اقتسام العالم بين الامبرياليين الجدد ! ... ذلك هو الوحش الرأسمالي ... ذلك الاخطبوط الذي يزداد شراهة لأكل لحم الشعوب المستضعفة » . ويتفق نائب بيروت نجاح واكيم مع الدكتور مروّة في هذا الربط فاضحا حقيقة الحضارة الرأسمالية الدموية وفهم الغرب الاستعماري لحقوق الانسان ، واستهتاره بحرية الشعوب وحقوقها ،واستهتاره ايضا بالسلام العالمي » .

وتتلخص السمة الرابعة بالاخذ على الموقف الدولي قديما وحديثا عدم اكتراثه بما اقترفه الاتراك ، فوقوف العالم كالمتفرج لايساهم الا في زيادة الطغاة طغياناً . وما جرى للأرمن - على نحو ما يملك الشيخ حسن المصري المسؤول الاعلامي بحركة أمل - كان منطلقا لانتشار الجرائم الجماعية على أيدي لمستعمرين . والأنكى من ذلك هو « سكوت العالم » وتفرجه على ذبح هذا الشعب الارمني المظلوم ، الأمر الذي أشاع الفساد والافساد ، وجرّأ على مجازر ترتكب في كل أماكن الاستعمار والاحتلال ، وهذا ما يعانيه شعبنا وأهلنا في لبنان ...» وهنا تتجه الرؤية حول مجازر الارمن وجهتين : وجهة تعود الى الماضي وتؤكد ضرورة معاقبة الأتراك على جرائمهم ، ووجهة تدعو الى التعاضد مع الارمن في الحاضر والمستقبل ليس لمعاقبة الاتراك العثمانيين وحدهم ،بل لاجتثاث النزعات الجرائمية من جذورها .

يعبر عن الوجهة الاولى كريم مروّة عضوالمكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني ، مفيدا انّ ذكرى مجازر الارمن اتهمّ الشعب الأرمني وحده ، بل تهمّ جميع الشعوب التي تعز عليها قصية الحرية والديمقراطية » وأن «أهمية تذكّر هذه المأساة الكبرى للشعب الأرمني ، تكمن في الفاشية التركية التي ارتكبت هذه الجريمة الأولى من نوعها في هذا القرن ، لم تتلق العقاب جزاء ما ارتكبته ، الأمر الذي أدى فيما بعد ، وفي مراحل مختلفة ، الى انتعاش الفاشية في مناطق أخرى متعددة من العالم » . ويرى أن الشعب الارمني ردّ ردّا حاسما على فاشية العثمانيين في ظل ثورة أوكتوبر الاشتراكية ، التي أدت الى قيام جمهورية أرمينية السوفيتية الاشتراكية ،

وفي جملة ما قاله الآخرون تعبير عن الوجهة الثانية الداعية الى الوقوف صفا واحدا في وجه العنصرية والعرقية اينما وجدت ، يقول الشيخ المصري : « غير أن شعبنا الذي يعيد للعدو الصهيوني الكيل كيلين (. . .) يقف الى جانب الشعب الارمني في تصدّيه لكل ظالم ظلمه وأخرجه من دياره . لعلّ بذلك تجتثّ الجريمة من أساسها ، بعد أن يأسنا من الدول الكبرى والصغرى ،والوسطى (. . .) فنحن مع استعادة الشعب الأرمني لكل حقوقه ، وأراضيه وموطنيته المسلوبة منه » .

والسمة الخاصة تنبثق من الايمان بأصالة الشعب الأرمني ،وقدرته على أن يجعل من نكباته سبباً للاستمرار ، ومنطلقا للنضال الثوري الذي لايعرف الهوادة ، وللبناء الحضاري المتواصل .يقول رجل الحقوق والكاتب جوزيف مغيزل : « لقد شرد قسم كبير من الشعب الأرمني ممن لم تنله يد الجزار فهاموا على وجوههم في أربعة أقطار العالم . ولكن هذا الشعب ـ على هول مأساته ـ ظلّ مرفوع الجبين ، يضرب به المثل على الكرامة والجد والابداع ، فمن أبنائه وبناته نماذج كثيرة جدا في الفنون والآداب والحرف والصناعات والأعمال الحرة » . والأرمن يقومون ـ من

خلال ذلك ـ بفعل حضاري كامل يقرن ارادة الحياة بالجهد ،ومحاربة الظلم على الجبهات كلها . وقد أثبت ،بالرغم من هول المأساة التي تعرّض لها ـكما يكتب نجاح واكيم ـ ان حقوق الشعوب لايمكن أن تموت ، وأن السلام الحقيقي في العالم ، لايمكن أن يقوم على القهر » .

والجانب الآخر لأصالة الشعب الأرمني التي لم تؤثرفيها مآسيه . هو ما يلفت النظر اليه المحامي والمؤرخ السوري جبرائيل سعادة من ناحيتين هامتين :

ـ الناحية الأولى أن هذا الشعب فصل بين العنصرين الذين اضطهدوه ، وبين غيرهم ، محافظا على ايمانه بالبشرية وناموسها . يكتب سعادة في جوابه على أسئلة «الثقافة الوطنية » : «الأرمن من الشعوب التي عانت في الحوادث التاريخية ، ولكن هذه المصائب التي حلت بهم لم تجعل من هذا الشعب معقّداً؟ ومنتقما من القدر ،ومحاولا اضطهاد غيره من الشعوب كما يفعل غيره من الشعوب ، ولنا أمثلة كثيرة في هذا المضمار . حيث انتقلوا من المضطهد الى المضطهد » .

ـ والناحية الثانية أن المجازر لم تلق بالشعب الأرمني في مرحلة عطالة العقل الثقافي والحضاري ، بل ـ على العكس ـ شحذت همته لينهض في وجه الهدم بالبناء ، وفي وجه الموت بفورة الحياة . ويتابع الأستاذ سعادة « لاشك أيضا أن تشرده في أنحاء مختلفة من العالم لم يسيء الى وحدة حضارته وتعلّقه بتقاليده وماضيه . فبينما كان عليه أن يقوم أولا بما يؤمن معيشته ، رأيناه يهتم بالأدب والموسيقا عامّة ، وبهذه الطريقة استطاع أن يهب البشرية الكثير من معطيات حضارته » .

ومن هذا الاقتناع انطلق هؤلاء الكتّاب والمفكّرون لمباركة الشعب الأرمني كفاحه العادل ، واصراره على استعادة حقوقه . يقول فارس

غصوب النحّات والرسام اللبناني :نحيي الشعب الأرمني المحافظ على قضيته الوطنية العادلة » . ونقف بخشوع واعتزاز أمام بطولات شهدائه الخالدين » . كما توجّهت زاهية سلمان رئيسة الجمعية اللبنانية للدفاع عن الطفولة ،تحيّة الى الشعب الأرمني وذكرى شهدائه ـ قائلة :» أبارك يقظته واصراره على البقاء ، وعلى العيش بكرامة وحرية ، كما أقدّر ولاءه للبنان وطنه الثاني » .

ويخلع الشاعر السوري علي أحمد سعيد (أدونيس) على الأواصر الأخوية بين الشعبين العربي والأرمني ، معنى زمنيا يشابه من خلاله بين ماضي الأرمن وواقع العرب باعتبار أن ما يعيشه الوطن العربي من مآسٍ هو نتيجة لما سبق وعاناه الأرمن .ولكي تتولد الثورة على أسباب هذه المآسي ينبغي أنْ يتحد العربي ـ واقعا ،بالأرمني ـ تاريخا . ومن هذا الاتحاد ينبثق المعنى الانساني الحي المشترك بينهما :الثورة أبدا على قوى الشرّ والظلام ، والتأسيس للنور الذي يحرّر الانسان ، ويفتح أمامه الآفاق ، رحبة بلاقيد ، لكي يبدع ،فكرا وعملا ، ولكي يكون سيّد مصيره « . ويختم حديثه بالقول : انّي اذ أشارك الشعب الأرمني هول هذه الذكرى ، حانيا عليها بتعاطف وحب كأنها جزء مني ، أثق بأن هذا الشعب رافد عظيم في هذا المحيط البشري الخلاق ، الذي يصارع من أجل تقدم الشعوب وحرياتها . . . . » .

ان في السمات التي استخلصناها موقفا واضحا من مجازر الارمن ،ولزيادة وضوحه نورد ما أكده الدكتور مروان فارس نائب رئيس الحزب القومي السوري في النقاط التالية :

1 ـ التضامن مع الشعب الأرمني ، لأنه نضال عادل ،ومساند الطموحات والحقوق التاريخية التي يسعى اليها .

ادانة المجازر والجرائم التي ارتكبت على يد الفاشية الطورانية البشعة

التأكيد للشعب الأرمني في العالم وخاصة على الساحة اللبنانية ،أن نضال الشعوب من أجل نوال نصيبها من أرضها واستقلالها وكرامتها ، انّما هو نضال واحد ، فانتصار أية قضية في أي مكان من العالم هو انتصار لقضايا الشعوب العادلة في كل أمكنة العالم .

اعتبار أن ما يقدمه الشعب الارمني على الساحة اللبنانية ، انّما هو متناغم تماما مع مطامع الشعب اللبناني ، فلا تفرقة لا في الحقوق ولا في الواجبات ، بل سعي واحد لبناء لبنان الجديد .

ان الحرب المستمرة منذ أكثر من عشر سنوات في لبنان ، قد أدت الى مجازر بشعة ، تذكَر بتلك التي تعرّض لها الشعب الأرمني ،بما لها من عبر ومن دروس . وبهذه المناسبة نؤكد باسم حزبنا للشعب الأرمني مرّة أخرى أننا على استعداد للعطاء لقضيته العادلة تماما كما يعطي هو لقضية لبنان العادلة أيضا »

ومما لايمكن تجاهله من اوجه موقف الشعب العربي من مجازر الأرمن هو الاهتمام المتزايد بها الذي يبديه المثقفون ، ورجال الفكر ، والدارسون العرب . ففي العقدين الأخيرين عرفت المكتبة العربية العديد من الكتب عن تاريخ حضارة الأرمن ، وقضيتهم ، وعلاقاتهم مع الوطن العربي . من هذه الكتب : **صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية** . لمؤلفه عثمان الترك ، **وأرمينيا في التاريخ العربي** لأديب السيد . **والأرمن عبر التاريخ** لمروان المدوّر ، **وأرمينية أرض وشعب** لسمير عربش ، **و تاريخ الشعب الأرمني** لفؤاد حسن حافظ ، **والطورانيةالتركية** لجهاد صالح ، وغيرها . ومن هذا القبيل يضاف ما تنشره الصحف والمجلات العربية من مقالات ودراسات

حول هذه القضية . والقارىء العربي توّاق لقراءة المزيد عن شعب عانى ما يعانيه العرب اليوم . واذا كان قد اطّلع على الاسلوب الشفاف للأديب الأرمني أفيتيك اسحاقيان (1875 — 1957) . في مجموعته القصصية **حكايات العم أوهان** المترجمة الى العربية (فرع طشقند لدار رادوغا 1988) ، وعلى نغمة الاغتراب الحزينة في كتاب **العبور الى أرارات** لمايكل آرلن الذي ترجمه المهندس خليل جنونيك عام 1986 . فانه لواجد معاني الجمال والتضحية في رواية الكاتب الأرمني الكبير **ثلاث سنوات ومائتان وواحد وتسعون يوما** ، الصادرة عن وزارة الثقافة السورية . سلسلة روايات عالمية . دمشق 1991 .

قصص وحكايا

ماذا يقول الأدب العربي في مجازر الأرمن ، وما هو صداها فيه ؟ ويتهيأ لنا أن السؤال الأهم هو الآتي : ماذا يمكن أن يقول الأدب عامة في هذه المجازر ؟ وهل يؤدي مهمته الجمالية ووالمعرفية إذا اكتفى بوصفها ، وأبرز قبحها ؟ أو لا يصح ـ بالاعتماد على ذلك ـ اعتبار مذكرات مورغنتاو ونعيم بك ، المليئة بالحوادث الرهيبة عن قتل الأرمن ، وفظاعة تهجيرهم ، مساهمات أدبية ؟

لا شك أن مجال البحث في هذه القضايا واسع ، ويحتاج إلى مقام آخر غير الذي نحن فيه . ففي ذاكرة القلة الباقية من المسنين في الأرياف والمناطق التي مر بها النازحون الأرمن ، الكثير من الحكايات المشابهة لما حكاه نعيم بك ، وقلّما نجد أرمنياً نجا من مذابح 1915 لا يفيض بالحديث عمّا عاناه أبناء شعبه بما من شأنه أن يعطي المأساة المعاصرة مضامين جديدة لم تعرفها من قبل . ومن المؤسف حقاً ألا يسجل إلا النذر اليسير من ذاكرة هذا الجيل . لكن ـ على ما يبدو ـ فإن ظروف المرحلة التي حدثت فيها المجازر لم تكن تسمح بذلك . فالأمية من جهة ، والتخلف الذي كان يلف

المنطقة من جهة ثانية ، وتشديد الثمانيين على إخفاء الحقيقة من جهة ثالثة تصالحوا للحيلولة دون ولادة « أدب » يمثل جرائم تلك الفترة ويكشف حقيقتها .

على أننا نبحث عن مهمة الأدب فيما يتجاوز حدود الوصف التسجيلي بكثير ، فمأساة الأرمن ليست في إبادتهم وحسب ، إنما في ابعادهم عن وطنهم ، وفي تشتيتهم أيضاً . وقد ترتب على ذلك وجود حائر للإنسان الأرمني ، فيه عالم يمور دون هوادة ، يصطرع في أعماقه واقع الغربة مع جراح الماضي والرغبة في البقاء لكنّه أيّ بقاء ؟ !

تلكم هي شخصية الأرمني التي نلتقيها في الأعمال الأدبية التي بين أيدينا من عربية أو مترجمة عن الأرمنية ، أو الانكليزية . انها نموذج للإنسان ذي « الحقيقة الناقصة » المتكون في غياب الوطن ، ومناخ الشعور ، بالغبن التاريخي . وهذا الانسان تركيب زمني معقد ، فحيويته ونشاطه الخلاق في الحاضر ، وتوقه إلى المستقبل ، لا يلغيان تقطيبات جبينه ، وانغلاقه على ماض أسود لا يفتأ يطرق أبوابه كلما خذلته المفارقات التي ينطوي عليها . وروحه المرحة البادية في ملامحه الظاهرة ، لا تقوى على إخفاء شعوره بالمرارة . وان المرء ليشعر ، حيناً ، أنه طاقة تفوق قدرات الانسان ، وحيناً آخر أنه نصف مقتول .

ومن القصص التي تبرز نموذج الشخصية الأرمنية بصفاتها تلك ، روايتان : « التيه » لعبد الرحمن منيف ، وهي الجزء الأول من خماسيته « مدن الملح » و « الهدس » لابراهيم الخليل . « التيه » تتناول قضية الأرمن ضمن مجموعة قضايا تحيط بها ، وتتوقف تطورها بعد موت الأرمني . أما رواية « الهدس » فتدور ، بصورة أساسية ، في فلك المجازر الأرمنية . ولهذا السبب جعلنا منها نموذجاً للقصص والحكايا عن هذه المجازر .

يصور لنا عبد الرحمن منيف شخصية أرمنية يمثلها « آكوب » . فمن هو « آكوب » ، وما مدى انعكاس هول المجازر الواقعة بشعبه ، في أعماقه ؟

آكوب سائق السيارة بين « عجرة » و « حران » متفوق على زملائه في كل شيء : يقود سيارته بهدوء واتقان ، ويصلح أعطالها ، وأعطال السيارات الأخرى ، كما يعرف آليات الأدوات التي يبيعها لأهل حران ، وكان هؤلاء يندهشون أمامها ، لأنها جديدة عليهم كالبابور ، وآلة فرم اللحم ، والمصابيح التي تعمل بالبطارية الجافة ، والترمس . حتى انهم كانوا يسمون سيارته بـ « سفينة نوح » .

ولآكوب سلاحان يميزان سلوكه : الصمت ، والصدق في المعاملة . فمهما تهجم عليه صاحبه راجي ـ جادّاً أو مازحاً ـ يحتفظ ببرود أعصابه ووقاره غير أن القارىء لا يتأخر كثيراً عن اكتشاف أنه بلا موطن ، فهو دائم الذهاب والإياب في سيارته لا يبارحها إلا ليشرب كأساً من الشاي في استراحات الانطلاق والوصول وما بينهما : « هذا الانسان لا أحد يعرف على وجه الدقة لماذا جاء أو من أين » . لكن حران أحبّته ، وكانت تترقب دائماً وصوله اليها : « آكوب » أصبح جزءاً من حران . إذا لم يكن في حران نفسها فهو في طريقه اليها ، ولا بد من أن يصل بين يوم وآخر » . والحقيقة أن طريقه إلى حران تستغرق حياته كحران ، فالسيارة هي موطنه غير الثابت يربطه بها عمله ، وغناؤه الدائم ، وكان آكوب على وعي بذلك ، فلا حلب ، ولا حران بقادرتين على إطفاء تعطشه إلى أجمل مكان في الدنيا ، إلى أرمينية ، حلم الماضي والمستقبل . فما هو ماضي آكوب إذاً ؟ . . . « وفي هذه الفترة عرف راجي أن آكوب جاء من حلب ، لكنه ولد وراء الجبال ، إلى جانب بحيرة لم يخلق الرب أجمل منها ، هكذا كان يقول ، وفي تلك الفترة القاسية ، ومع التبدلات الكبرى التي حصلت في أوائل القرن ، اثر المذابح التي حلت بالأرمن ، جاءت به جدته بعد أن فقد أمه وأباه وأكثر

أفراد عائلته في تلك المذابح ، جاءت به إلى حلب ، وفيها عاش . وأن هذه السيارة حصيلة عمر بأكمله ، ورغم أنه تقدم في العمر ، ولم يكن يعترف بعمره أبداً - إلا أنه سيرجع خلال فترة قريبة . سنتين أو ثلاث سنوات إلى حلب ، وبعد أن يتزوج سيذهب وزوجته إلى تلك البحيرة ، وسيعيشان هناك لأنه يريد لأولاده كلهم أن يولدوا على تلك الأرض . أما إذا تقدم به العمر فسوف يتفرغ لنظم الشعر ! » .

والمقابلة بين السيارة وحصيلة العمر مقصودة - في رأينا - لخلق المسافة بين ما يحققه الانسان في وطنه ، وما يحققه في منفاه الثاني ، على اعتبار أن حلب هي المنفى الأول أو المحطة الأكثر ثباتاً للعودة إلى أرمينية ، بعد أن يبيع السيارة العتيقة ، ويشتري سيارة جديدة ليقول لحران « وللحظ كله : كولا . . كولا . . ، يقفل عائداً ، أولاً إلى حلب ثم إلى أرمينية » . هكذا كان يفكر ويحلم ويخطط ، فإذا مرّت هذه الأفكار برأسه ورآها واضحة جلية كاملة تنبسط أساريره ، ويشرق وجهه « . وتغيير السيارة كان من مقتضيات تغيير الواقع ، ودحر الحظ . ولكن قدره يبقيه لصيقاً بجناية عمره « السيارة العتيقة » ، وحتى عندما يلفظ أنفاسه الأخيرة يلفظها وهو نائم داخل هذه السيارة التي لم تعرف الاستقرار أبداً .

هكذا يموت آكوب الطيّب دون أن يتحقق شيء من حلمه بالعودة ، وتحزن حران بأكملها على هذا الجزء منها ، الذي نال احترام الناس كلهم ، واعجابهم أيضاً ، لأنه كان يمنحهم من غنى ذاته ، ويدفن أوجاعه الخاصة في صدره ، أو يخرجها منه في ثوب أغنية يدندنها لصاحبه راجي الذي التاع عليه أيما التياع . مات آكوب مع أنه كان يملك قوة كافية لتأكيد وجوده ، لكنها القوة التي لم تسطع أن تضم شطري ذاته المنفصمين ، لأنها ليست في تربتها المناسبة .

هذا ما وجدنا أن عبد الرحمن منيف يريد قوله عبر شخصية « آكوب » فما القصة التي ستحكيها لنا رواية « الهدس » ؟

تغطي أحداث « الهدس » مرحلة زمنية تتراوح بين الشهرين والثلاثين عاماً ، أي من المجازر الكبرى عام 1915 حتى بداية الحرب العالمية الثانية ، وتأتي آخر صفحتين فيها لتطوي الزمن ، وتصل إلى أواخر الأربعينات . علماً أن التداخل الزمني لا يعطي فكرة واضحة عن الواقع التاريخي الذي ينفي الكاتب أن روايته يمكن أن توثقه : « والرواية لا تدعي التوثيق أو التسجيل ، وانها في معظمها وليدة الخيال » ، كما يكتب في افتتاحية الرواية . ولا أهمية لذلك أمام ما نرمي دراسته في هذه الرواية .

بطل الرواية أحمد الفياض من الرميلة على ضفاف الفرات ، هو قائد سفينة يساعد الناس في اجتياز الفرات . تدور حوله عدة محاور لشخصيات أخرى تصور جريان حياة البدو في فترة الانتداب الفرنسي على سورية . وليست هذه المحاور هي هدف الكاتب الأول . إنما يتركز هدفه على أحمد الفياض وعلاقته بالأرمنيين ساكو ، وآرو ، ومن خلال سيرورة الأحداث التي يسوقها السرد نكتشف أن أحمد الفياض في المركز ، على يمينه ساكو وآرو ، وعلى يساره مأساتها المتمثلة بضحايا الجرائمم التركية . فإذا رمزنا لأحمد الفياض بالرمز (آ) وللأرمنيين بالرمز (ب) ، وللمجازر بالرمز (ب$_1$) صارت السيرورة بهذا الشكل : ب آ ب$_1$. وانطلاقاً من تحليل العلاقة بين آ و ب$_1$سنحاول أن نتبين معالم صورة المجازر الأرمنية في هذه الرواية ، ومدى قدرة الكاتب على تعميمها فنياً .

يجعل الكاتب روايته في سبعة فصول ، في كل فصل مجموعة أقسام أراد أن يقطّع سيرورة الأحداث بوساطتها ، وأن يخلق التناوب بين

الشخصيات والمكان والزمان كما تشي الجملة الافتتاحية لكل قسم في الفصل الأول :

القسم الأول : وأنت ياأحمد الفياض ــــــ شخصية .
القسم الثاني : من دار البلدية إلى دار البغاء ،ــ مكان .
القسم الثالث : عند الفجر وقفت القافلة ، ــــ زمان .
القسم الرابع : مدت بدرية رأسها من خلال الخباء ــــ ضحية . . وهكذا.

وكأن الكاتب باتباعه هذه التقنية ـ غير المتواترة بانتظام ـ يرسم للشخصية اطاريها الضروريين لتتحرك وتنمو . وكما يظهر من الجملة الأولى في الرواية يتخذ أحمد الفياض وظيفة اشكالية في هذا التقسيم الذي جعله الكاتب « نشيداً بدائياً » يحاور به أحمد الفياض ذاته بقوله « وأنت ياأحمد الفياض . كنت وحدك ، دائماً وحدك » . ودليل هذه الوحدة هو استسلامه للخمرة ، وملاهي الحياة الضائعة في عمل لم يجنِ منه سوى الفقر . . . « ياأخا الحلوة ، أنت وحدك ، ما واطنت سوى قدومك ، وفقرك ،والعرق » . ويوسع التداعي من رقعة الضوء الملقاة على ذات البطل ، لنعرف أن أحمد الفياض كان قتل في الماضي « شناقاً تركية ، وأن حواره مع نهر الفرات حوار مع رمز للظلم « ـ أنت ظالم يافرات ، أنت قاتل يافرات ، أنت طاغية ، وسلطان ، وغدّار يافرات ، ونخمن تخميناً أن « تركية العثمانية » هي المقصودة بهذا الرمز ، فبعد أسطر يسائل البطل نفسه « ـ أين ذهب العسكري التركي ؟ ! » ومن المنطقي فنياً أن تكون البداية بهذه النغمة ، ليردفها فوراً بنتيجة ظلم الفرات وهي مجازر الأرمن ، ومقبرتهم في القرية المليئة بالعجاج ، والدم ، والجثث الحزينة ، » « يسكنها مهاجرون جدد يفدون من سروج والرها ، أو حران وماردين ، تقودهم الدروب أحياناً دون قصد . . » . ثم يعود إلى أحمد الفياض ليفصّل أكثر في إيراد جوانب إضافية

من حياته بين الخمارة ، وبدرية النوريّة ، وبعد ذلك يقدم لنا شخصية « ساكو » الأرمني ، مبيّض المواعين ، ومصلّح البوابير ، وشخصية « آرو » صاحب الخمارة . وهذا هو شكل السيرورة الذي رسمناه جاعلين مركزه البطل أحمد الفياض . وقد وفر الكاتب كثيراً على قارئه عندما عقد الأصرة بين المركز « آ » وطرفيه « ب » و « $ب_1$» بالجملة الآتية : « وكان أحمد الفياض يودّ الأرمني ويحترمه ولا يترك لأحد المجال في التطاول عليه ، وكأنه أخوه الشقيق » . وتأتي قرائن كثيرة أخرى لتجسيد عاطفة البطل تجاه الأرمن ، فآرو يناديه مثلاً بـ « ابن العم » لعمق الرابطة بينهما ، وعائلة « ساكو » تعتبره واحداً منها . وباختصار نقول : ان أحمد الفياض ، المعادي للأتراك وظلمهم ، وصديق الأرمن ، يوحي بموقف جماعي هو موقف العشب العربي السوري من كوارث الأرمن . ويدفع الكاتب هذا الإيحاء باتجاه آخر يتعلق بمعاناة الأرمن الناجين من الموت ، ويكثفها في ذات الأرمني ساكو الذي قد يكون « آكوب » في رواية عبد الرحمن منيف خلع عليه بعضاً من ظلاله .

لم يكن عند ساكو سيارة ، إنما كان يملك « بغلاً » يحمل عليه الأدوات التي تتطلبها مهنة « التبييض » ، ويتجول بين قرى المنطقة . وكان « البغل » يعني الكثير عند ساكو ، لأنه كان يصاحبه في رحلاته نحو مأساته القابعة في جهة الشمال التي أتى منها مجتثاً من جذوره : « يبدو أن ساكو صحا باكراً ، وهذا يعني رحلة طويلة إلى القرى الشمالية ، هذا الشمال الجارح ، شمال الدم ، والحدود ، والموت » . وهذا الشمال يمتزج بذكريات ساكو القاتمة التي تحمّله هموم شعبه المقتول ، وتحوّل حياته إلى شريط من التحسر : « هذا الشمال جارح كشبا السيف ، ليس من جهة من الجهات الأصلية أكثر منه ظفراً ووجهاً قبيحاً ولغ في دم الأبرياء الأرمن » . وبينما يسرح ساكو على هدى حنينه ، يدير الكاتب عدسته ليرينا ما يأتي به الفرات من جهة الشمال : « صار الفرات مقبرة للغرقى ، فبدل السمك صرنا نصطاد

الأموات . . . الأرمن عند الفرات » . . . وقال أحد الصيادين يرد على رفيقه : « المشكلة ، كل هؤلاء الموتى ولم نسمع عن أحد يسأل عنهم ، حتى الحكومة لم تحرك ساكناً . . . » . وكانت فلول المشردين تصل في جماعات مهدودة تركها العراء لقمة في أفواه الحراس الأتراك ، واللصوص الذين كانوا يعتقدون أن « في بطون الأرمن ذهباً وجواهر » .

وعدسة الكاتب لا تلتزم بالتسجيل الحيادي لهذه المشاهد إلا ظاهرياً ، وسرعان ما يلوح الراوي بانتقادات مبطنة للحكومة ، والمخفر الذي كان يقلب الدنيا لحادث عابر ، وأمام هذا الموت الجماعي ينبري رئيسه ليقول ببساطة « ـ هؤلاء الناس خانوا الحكومة ، وهذا جزاء من يخون الحكومة ، ماذا يظنون الحكومة » . ولم تدخل هذه الكلمات في عقول الأهالي الذين كانوا يرون بؤس الأرمن ، فتساءلوا مع الراوي : « هل يمكن أن يقف هؤلاء المساكين ضد السلطان الحاكم في استنبول ؟ ! وفي كل صباح كانت تتدفق موجات الأرمن حاملة أمواتهم في الفرات وأحياءهم على جناح القدر المبهم ، لا يجدون من معين سوى بعض ما يسد الرمق إلى حين ، كان يقدمه العرب خلسة : « وعلى الطرقات وضعت أيد خفية طعاماً وشراباً للمهجرين واختفت خشية سطوة الحكومة » . وما نفع ذلك في شيء ، فالجوع أجبر الأرمن على طبخ الدم قبل أن يموتوا . . . » وفجراً في مسلخ البلد كنت ترى عجائز ارمنيات وشيوخاً يحملون في أيديهم صحوناً فخارية يملأونها بدم الذبائح ثم يهرعون إلى أطفالهم ، ثم تطبخ النسوة الدم حتى يتجمد ، ثم يقدمنه طعاماً ، ويوماً بعد يوم يتساقطون صرعى ، حتى فاقت مقبرتهم سعة مقبرة المسلمين ، فما عادوا يأبهون أين يدفنون موتاهم ، كما بدأت تسميات جديدة تحمل اسمهم فإلى جانب « مقبرة الأرمن » هناك « جورة الأرمن » (. . .) فمع كل ضربة فأس تفاجئك جمجمة أو عظمة ساق أو فخذ » . وكان الموت يأتي في لبوس خدعة يخترعها الموظفون

العثمانيون إذ يعلنوا لبعض الأرمن النازحين أن الحكومة قد أصدرت عفواً عنهم « فيخنقهم البكاء فرحاً » ، وكخراف مطيعة يتبعون حرسهم لترحيلهم إلى مدنهم ، وبعد أشهر كشفت اللعبة القذرة حين فوجىء أحد الأهالي ، وهو يملأ عربته رملاً من أحد التلول ، بعظام ، وثياب وهياكل بشرية ، فلم يكن التل في الحقيقة سوى « مقبرة جماعية » لأولئك التعساء الذين بشرهم الحرس بالعفو . . . » .

وفي نهاية تصوير ما يجيء من الشمال ، تتركز العدسة من جديد على ماضي « ساكو » و « آرو » اللذين تمكنا من الهرب صوب الجبال والقرى النائية وعاد « ساكو » و « آرو » من القرى ، وأخبار المذابح تطاردهم من الحمرات إلى الزرزوري وبندرخان ، حيث أخرج أحد المزارعين وهو يريد تنظيف قاع بيردناي وإعادة استعماله أكثر من تسعين جثة أرمنية لا زالت في بطون بعضها هياكل عظمية لأجنة صغيرة ، كان قد ألقاها حارس المحطة وهو يستقبل شحنات القادمين في قطارات الترحيل » . وقيض لهذين الأرمنيين أن يعيشا من جديد ، مع قلة من أطفال وفتيات « آواهن الرعاة والبدو بإيعاز من الشريف حسين في الحجاز » (. . .) ، وقد اشتغل « آرو » سقّاء ، ثم تحول إلى بيع الخمور ، وظل ساكو في عمله وتزوج من « آزنيف » ، وتعرف أحمد الفياض إلى فلورا ، أيام ، لوحة من الدم والنار ، وشم بدائي لا يموت » .

ومع اجتماع أركان العلاقة الثلاثة ، وكشف الماضي ، ستعود صورة المذابح لتقترن ، في نفس ساكو ، بجهة الشمال التي غدت هاجساً لا يبارحه . وقد أبان الراوي عن طريق التداخل بين مقاطع السرد أن ساكو تعرض لمداهمة البدو ، وأشرف على الموت ، ثم عاود تجواله بعد تماثله للشفاء . وما قلل ذلك من عزيمته على الرحيل باتجاه الشمال . فكيف يرحل ويترك زوجاً ، وطفلين ، وما غايته من هذا الرحيل .

لقد كان « ساكو » يعرف أنه مهما لاقى من سعادة الحياة في غربته ، فسيظل فاقداً أرمنيته ، ومتعطشاً لأرمينية . ومنذ البداية قال في أعماقه : « انك تبدأ الآن رحلتك الجديدة ـ القديمة ياساكو . . . تنده كالموجوع آني ، ديكران ، فلا يجيب سوى صمت البوادي ، ورسوم التلول وعاقولها ، وقندريسها البري ، وجع يدفع وجعاً ، وجرح يواسي جرحاً ، من يرفأ هذه الجروح ياساكو؟ من وان وزيتون وتبليس ، وسيواس ، وخربوت ، وأورفة ، ومرعش ، من تكرداغ ، وبره جيك ، وسكي شهر يبدأ حزنك الأرمني وصياعك الأرمني ، وموتك الأرمني ، ودمك الأرمني الذي بات أرخص من التراب . . » . ويسرد الراوي على لسان ساكو ماضي الأرمن وحاضرهم ، وماضيه هو الذي ترك في جيبه مفتاح محله التجاري ومفتاح بيته ، وفي رأسه ذكرى ألعاب « موسو » الطفل وثيات أرشالوس الحلوة وغرفة سيتراك الصغير ، وهدايا عرس مارال الصبية ؟ . . . « لماذا ياالله هذا ؟ تلمس مفتاحك ، ومفتاح بيتك ، محلك الذي كأنما تركته لأداء صلاة الأحد وتعود ، أنت المهجر الضائع تبحث عن آني وديكران على خط البليخ ، هكذا مثل حفنة ملح ذابا . . انك تبدأ ياساكو . تبكي . تبكي ياساكو آني وديكران وتكفيك عيناك ، وقلبك القوي . فكيف لو أردت أن تبكي أرمينيا ؟ ! كل بحار العالم لن تكفيك ، لن تكفي الجثث المشوهة ، والأرجل الحافية » . إذاً آزنيف وطفلاها حاضر لم يشكل في محيط ذاته سوى قطرة يريد لها أن تكبر ، لكن بعيداً عنه ، فهو راحل إلى ماضيه الذي لن يندبه ، بل سيبحث عنه حتى يجده ، فماذا يفعل ؟ وبأية طريقة سيحمل آزنيف على عدم الاحتجاج دون أن يجرحها ؟ وتحازل آزنيف أن تقنعه بعدم الرحيل « ـ ساكو ألا تكف عن هذا الرحيل الدائم ، إذا ضعت ضعنا بعدك ، آني وديكران يرعاهما الرب ، كما رعانا نحن » . والمسألة ليست مسألة آني وديكران فقط ، انها مسألة ضرورة البحث عن الماضي : فاما إيجاده والالتحام فيه ، وأما دوام الرحيل . والضراعة ، الزوج لا يردان في

الخاطر في مثل هذه الحال . قالت آزنيف « اسمعني ساكو ، اقلع عن هذه الرحلات الخطرة ، فليس في البرية غير الشوك وقطاع الطرق والمرار . . .

ـ المسيح معي . . . ـ المسيح لم يوص بالهلاك . ـ آزنيف كل هذا الكلام لا ينفع ، السفر لا بد منه » . وسافر . التقى بعض أصدقائه « خوشناف وزيرو » ، قرع كأس أحمد الفياض قبل أن يقرع كؤوسهم ، وساق حماره ، الذي اشتراه بعد « البغل » ، وسرح يغني لضياعه متوجهاً إلى حيث يوجد الماضي « يدفع حماره مسلوياً ، كل الجهات أرمينية بعد أمتار ، يعبر الحدود ثملاً ، نشوان ويلمع ضوء ، ويصحو خوشناف على صوت يعرفه جيداً ، ويخافه كل من يسكن أو يعبر الحدود ، صوت انفجار لغم . ـ ساكو ، هذا الأرمني المجنون ماذا يفعل ؟ ! » . ومات ساكو كما مات آكوب ، وكلاهما كان يبحث عن ماضيه ، شعوراً منه بأن حقيقته ناقصة من دون وطن . . . وكما حزنت حران على آكوب الذي صار جزءاً منها ، حزن أحمد الفياض على ساكو ، وهو الذي لم يحزن سوى مرتين قبل ذلك ، يوم ماتت جدته ، ويوم ماتت فلورا . « والحزن الثالث يوم فقد ساكو ، الطيب الوادع تمزقه الألغام على الحدود كأية دابة ضالة » . وتوجه أحمد الفياض إلى « آزنيف » بالمساعدة والعون ، إلى أن جاء ديكران بن ساكو وأخذها مع طفليها في رحلة ضياع جديدة « مضت إلى غربة أشد من غربتها ولم تعترض ، ولماذا تعترض ؟ ما دامت كل البلدان ليست أرمينية ، فكلها متشابهة » . وأحمد الفياض طان ضائعاً بين حزنه ، وهروبه بالخمرة ، ووحدته ، وإذا كان لقاؤه بسعدالله الجابري قد زرع في نفسه شيئاً من الأمل ، فمأساة فلسطين ستزيد في اغترابه ، وستدفع بأحداث القرية في اتجاه جديد بعد بقائها طوال الرواية خلفية لأحمد الفياض وعلاقته بالأرمن . فالبرادعي الرجل المتنفذ يـاتي بـ « لنش » إلى الفرات وتصير سفينة الفياض ضئيلة أمامه . وأحمد الفياض نفسه يغيب عن الألسن بعد أن قضى عمره في النهر ، ليظهر سائق اللنش عزمي . ولكنه تعرف ، ورأى أنه رجل

حقيقي . وفجأة يختفي عزمي ، وتظهر آلات ضخمة ومعدات كثيرة لأن « الانكليز يبنون جسراً يصل بين الشامية والجزيرة ، لتسهيل عبور القوات العسكرية » . والانكليز كالعثمانيين والفرنسيين انتهكوا حرمة الأرض العربية ، وتعسفوا مع أهلها ، لذلك صار أحمد الفياض مهيض الجناح ، يئن تحت وطأة واقع امته المرير : « لحظتها شعر أحمد الفياض أنه وحيد وعجوز وضائع ، وأن الزمان القادم سيكون من حديد » . وكان حقاً من حديد ، فقد رحل الفرنسيون ، والانكليز ، وصار الوطن حراً ، لكن تحرره لم يكتمل ، لأن مجازر جديدة بدأت ترتكب في فلسطين « جاء نازحون جدد ، مشردون طردهم اليهود هذه المرة وليس الأتراك » . وهكذا حمل أحمد الفياض هموم صديقه ساكو ، وهموم اخوته الفلسطينيين ، مستأنفاً وجوده بالضياع . وهنا لا يسمح الكاتب أن يؤول مصير بطله إلى هذه النهاية ، ولا يسمح لساكو أن يكون بلا مستقبل . لذا يختم روايته بدمج الشخصيتين في فكرة واحة ترجمها بتزويج ابن آرو من نازحة مسيحية فلسطينية ، وتساءل على لسان آرو عن جنسية الولد الذي سيأتي من هذا الزواج ، فأجاب المفتي : سيكون أرمنياسطينياً ، وهذه ليست جنسية ، لكنها بالتأكيد قضية « . انها قضية آزنيف ، وديكران ، وآرو ، وقضية أحمد الفياض ، ومن رحلوا من أبناء الرميلة بحثاً عن منفذ جديد لحياتهم في مدينة حلب . وباختصار ان ساكو لم يمت ، بل امتد في رحم قضيته ، وأحمد الفياض سيعود إلى الجادة على الرغم من المستقبل . فأول الضربة القاصمة اغماء ، ومع عودة الوعي ، تكون الشخصية قد حفزت لوثبة جديدة . وعندما يكون على درب الظلام رفيق ، يتضاءل الخوف ، ويصير الخطو ذا وقع ثابت . لعل في هذه الأفكار ما يعطي رواية « الهدس » مغزاها الذي أراد الكاتب أن يقدمه في ثوب روائي .

على أية حال ، رواية « الهدس » تواجه موضوعاً هاماً ، وبنية طيبة تحكمت بها أحياناً أفكار جاهزة لا نحسبها ، عادة ، ونحن نبحث عن قضية

كالتي قرأناها فيها . ويبدو أن تعدد المحاور ، واتساع رقعة الزمان أجبرا الكاتب على اتباع هذا المنهج في سرده للأحداث . ولن ننسى أن نشير إلى غنى شخصية « ساكو » وتفوقه على شخصية أحمد الفياض الذي بقي حبيس صيرورة جامدة .

* خاتمة *

قد تكتسب ذكرى المحن عند الانسان معاني كثيرة ، يبني من خلالها ذاته لمواجهة المستقبل ، أو يحجّر نفسه عليها ، ويصبح أسيرا لها ، لايقوم ، ولا تتولد فيه الرغبة بالقيام من تحت أثقالها . والشعب الأرمني هو من أكثر الشعوب التي تنفي الأنصياع للمحن ، وتاريخه الطويل يشهد على أنه كلما مالت به دفّة السفين ، وأوقعته في لجّة المآسي . انتصب من جديد ، وتابع عطاءه ، واذا كانت فاشية عبد الحميد قد أحرقت قراه ، وعنصرية «طلعت باشا »قد جعلته يفتخر بأنه استطاع خلال ثلاثة أشهر أن يحصد من الأرمن ما لم يستطع عبد الحميد أن يحصده خلال ثلاثين عاما ، فإن الأرمن ، الذين بقوا في أرمينية ، أو الذين يعيشون في الشتات ، اعطوا الحضارة الحديثة أسماء يطمح أي شعب من العالم أن يقدّم أمثالها ، فوليم ساروريان ذو الأصل الأرمني ل يقل شأنا في أمريكة والعالم عن أرنست همنغواي ، وآرام خشادوريان ، موسيقار الاتحاد السوفييتي من العبقريات الموسيقية المعدودة ، ويعد النقاد العالميون المصور الأرمني الأصل يوسف كارش واحدا من أهم الفنانين الفوتوغرافيين في وقتنا الحاضر ، ليس في وطنه الحاضر (كندا) وحسب ، بل في العالم كله » .

وليس هذا كل شيء ، فأرمن الشتات معروفون بإخلاصهم للبلدان التي أقاموا فيها ، وبمتابعتهم للنضال في سبيل قضيتهم التي لم يجد لها العالم حلا حتى الآن . وهم يعرفون جيدا مدى ارتباط آمالهم في التحرر ، وتحقيق وحدة أمتهم ، بآمال الشعوب الأخرى الساعية الى الأهداف ذاتها ، وفي مقدمة هذه الشعوب الشعب العربي الذي مضى على نهضته قرن ونصف القرن ، وأعداؤه من امبرياليين وصهيونيين يسهرون على عرقلة تطوّره وابقائه دائرا في فلك سياستهم . ولم يتوان الأرمن في سورية ولبنان عن الاندفاع الصادق البناء ،وحماية الوطن من المتكالبين على حدوده . وهذه سمة أخرى من سمات أصالتهم ، وتحضرهم أيضا .

والآن ، وبعد مضي خمسة وسبعين عاما على المذابح الأرمنية الكبرى ، ينبغي أن يستمرّ الأرمن في السير على طريق الإحياء من خلال الموت ؛ ذلك أن من ذهبوا ضحية العنصرية التركية ، لم يخلّفوا وراءهم أحفادا يخضعون للقدر ، وينحدرون في ظلمات اليأس . بل ـ على العكس تماما ـ فهؤلاء الأحفاد أدركوا جوهر القضية التي فدتها أمة الأرمن بمليون ونصف شهيد ماتوا وهم يستخفون بالعذاب ،والتشريد ،والألم في سبيل أرمنيتهم التي لم يستطع العثمانيون ابادتها . وكانوا بذلك يعبرون عن المثل الأرمني القديم : الموت من دون علم موت ،اما الموت المعلوم فهو الخلود . وذلكم هو المعنى الأسمى للتضحية من أجل أية قضية عادلة .

وهكذا يثبت الأرمن من خلال نكباتهم ، كما أثبتوا وأثبت العرب أيضا ، أن الفاشية التركية والصهيونية قد تقتل أفرادا من الأرمن أو العرب ولكنّها لا تستطيع أن تقتل أمة الأرمن ولا الأمة العربية . والمستقبل لمن اعتنق قضيته وآمن بها .

مراجع الدراسة

4ـ ـ أشخانيان ، رافائيل . نشأة الأرمن وتاريخهم القديم ـ ترجمة هوري عزازيان ـ بيروت 1986 .

ـ آرلن . مايكل . العبور الى آرارات ـ ترجمة خليل حنونيك اللاذقية 1986 .

ـ بامبوكيان ، يروانت . شهادة الأرمن ، ترجمة الأب كيغام خاتشريان ـ بيروت 1985 .

ـ الترك ، عثمان . صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية ـ حلب 1960 .

حافظ ، فؤاد حسن . تاريخ الشعب الارمني منذ البداية حتى اليوم ـ القاهرة 1986 .

ـ الخليل ، ابراهيم . الهدس ـ بيروت 1987 .

ـ داستابيديان ، هراج . القضية الأرمنية ـ بيروت 1984 .

ـ زكي بك ، محمد أمين . تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن . بيروت 1985 .

- زهر الدين ، د. صالح . الأرمن شعب وقضية - بيروت 1988 .
- السيد ، أديب . أرمينية في التاريخ العربي - حلب 1972 .
- صالح ، جهاد . الطورانية التركية بين الأصولية والفاشية - بيروت 1987 .
- عربش ، سمير . أرمينية أرض وشعب - بيروت 1991 .
- كلش ، د. حسن . الوجه الآخر للاتحاد والترقي - اربد - الأردن 1990 .
- لجنة الكنائس للشؤون الدولية . أرمينية المأساة المستمرة -بيروت 1984 .
- المدور ، مروان - الأرمن عبر التاريخ - بيروت 1982 .
- مكتب المعلومات الأرمني - الأرمن يتذكرون - بيروت 1965 .
- منيف ، عبد الرحمن - التيه - بيروت 1986 .
- مورغنتاو ، هنري . قتل أمه - 1990 .
- يكن ، ولي الدين . المعلوم والمجهول - بيروت 1909 .
- يرتسيان ، باروين مجازر الأرمن - من مذكرات نعيم بك . بيروت 1986 .



ما أسباب القضية الأرمنية ؟ وماذا كانت مواقف الدول الكبرى منها ؟ ما الموقف الرسمي للحكومات العربية ، وما موقف الشعب العربي ؟

على هذه الأسئلة يقدم الدكتور نعيم اليافي في كتابه هذا الاجابات الموثقة ليرسم بحرارة الملحمة الأرمنية ، وصور العلاقات الأخوية والكفاحية بين الشعبين العربي والأرمني ، والتي تجسدت في قول القائد المناضل حافظ الأسد أثناء زيارته لأرمينيا عام 1979 :

« لقد كان شعبكم دائما يتميّز بالحيوية ، والنشاط والجهد من أجل بناء أفضل ، سواء كان ذلك داخل وطنكم أم خارجه ، ويسرّني أن يكون كثيرون من أبناء هذه الجمهورية قد أمضوا فترة من الزمن في سورية وعندما عادوا الى هنا ، تركوا وراءهم سمعة جيدة ، وكانوا مخلصين في جهدهم ، وأوفياء في علاقاتهم ، وتجدر الاشارة الى أنه من بين الروابط العديدة القائمة بيننا ، فإن الروابط العائلية قائمة بين الكثير من الأسر السورية ، وأرمينيا ، وهي تشكل رابطة انسانية هامة .

ويسعدني أن أشير إلى أن المواطنين في بلادنا من الأرمن السوريين ، يساهمون بشكل جيد وبحماسة ، في بناء البلاد ، ويشتركون مع سائر أبناء الشعب ، في الدفاع الشجاع عن حرّيتها وحدودها » .



دار الحوار للنشر والتوزيع

اللاذقية ـ ص.ب 1018 ـ هاتف 22339 ـ سورية

مطابع الف‍... الأديب

دمشق ـ هاتف ٢٢١٧١١